المغني في التفسير

المُحَرِّرُ الجَامِعُ لِتفَاسِيرِ السَّلَفِ

[تَهْذِيبُ التَّفْسِيرِ المُحَرَّرِ لِلدُّرَرِ السَّنِيَّةِ]

[مُطَرَّزًا بِحَاشِيَةٍ مِنْ تَحْرِيرَاتٍ وَترْجِيحَاتٍ وَتَعْلِيقَاتِ عُيُونِ تَفَاسِيرِ المُحَقِّقِينَ فِي التَّفْسِيرِ:

{ابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ عَطِيَّةَ، وَابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ، وَابْنِ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى}

كَتَبَهُ وَاعْتَنَى بِهِ

د/ هَانِي بْن عَبْده

د/ آلَاء رِضَا

«المُغْنِي فِي التَّفْسِيرِ»

المُحَرِّرُ الجَامِعُ لِتَفَاسِيرِ السَّلَفِ

[تَهْذِيبُ التَّفْسِيرِ المُحَرَّرِ لِلدُّرَرِ السَّنِيَّةِ]

[مُطَرَّزًا بِحَاشِيَةٍ مِنْ تَحْرِيرَاتٍ وَتَرْجِيحَاتٍ وَتَعْلِيقَاتِ عُيُونِ تَفَاسِيرِ المُحَقِّقِينَ فِي التَّفْسِيرِ:

{ابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ عَطِيَّةَ، وَابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ، وَابْنِ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى}

مُقْتَبَسَةً مِنْ مُوسُوعَةِ التَّفْسِيرِ المَأْثُورِ

كَتَبَهُ وَاعْتَنَى بِهِ

د/ هَانِي بْنُ عَبْدِهِ

د/ آلَاء رِضَا

غَفَرَ اللَّهُ لَهُمَا وَلِوَالِدَيْهِمَا وَلِمَشَايِخِهِمْ وَلِلْمُسْلِمِينَ

بسم الله الرحمن الرحيم

«المُغْنِي فِي التَّفْسِيرِ»

المُحَرِّرُ الجَامِعُ لِتَفَاسِيرِ السَّلَفِ

سُورةُ الجاثيةِ، سُورةُ الأحقافِ، سورةُ مُحمَّدٍ

(المجلَّدُ الثَّالثُ والثَّلاثون)

"هَذِهِ مُسْوَدَّةُ نُسْخَةٍ إِلِكْتِرُونِيَّةٍ، جَمِيعُ حُقُوقِهَا مَحْفُوظَةٌ لِلْمُؤَلِّفِ.
لَا يُسْمَحُ بِنَشْرِهَا أَوْ تَدَاوُلِهَا إِلَّا بِإِذْنٍ كِتَابِيٍّ صَرِيحٍ مِنَ الْمُؤَلِّفِ."

نسخة
إلكترونية

تَفْسِيرُ
سُورَةِ الجاثِيةِ

سُورةُ الجاثيةِ

سُورةُ الجاثيةِ

تُسَمَّى هذه السُّورةُ بسُورةِ (الجاثيةِ).[1]

سورةُ (الجاثيةِ) مَكِّيَّةٌ،[2] وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك.[3]

---

(1) سُمِّيَت هذه السُّورةُ في كثيرٍ مِن المصاحِفِ وكُتُبِ التَّفسيرِ بسُورةِ الجاثيةِ؛ وذلك لِوُقوعِ لَفظِ «جاثية» فيها؛ في قَولِه تعالى: وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً [الجاثية: 28]، ولم يَقَعْ في مَوضِعٍ آخَرَ مِن القُرآنِ.

يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (426/1)، ((تفسير ابن عاشور)) (323/25).

قال ابنُ عاشور: (وتُسَمَّى «حم الجاثية»...

وتُسمَّى سورةَ «الشَّريعة»؛ لِوُقوعِ لَفظِ «شريعة» فيها؛ في قَولِه تعالى: ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا [الجاثية: 18]، ولم يَقَعْ في مَوضِعٍ آخَرَ مِن القُرآنِ.

وتُسمَّى سورةَ «الدَّهرِ»؛ لِوُقوعِ وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ [الجاثية: 24] فيها، ولم يقَعْ لَفظُ «الدَّهرِ» في ذواتِ «حم» الأُخَرِ).

((تفسير ابن عاشور)) (323/25) بتصرف يسير.

ويُنظر: ((صحيح البخاري)) (166/6)، ((تفسير الكرماني)) (1083/2).

(2) وقيلَ: مَكِّيَّةٌ إلَّا قولَه تعالى: قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ [الجاثية: 14]؛ فنَزَل بالمدينةِ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (72/21)، ((تفسير الماوردي)) (260/5)، ((تفسير الزمخشري)) (284/4).

(3) ممَّن نَقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّة، والفيروزابادي، والبِقاعي.

يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (69/5)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (426/1)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (475/2).

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ سُورةِ الجاثيةِ:

1– إثباتُ انفِرادِ اللهِ تعالى بالإلهيَّةِ.

2– تقريرُ البَعثِ، ووصْفُ بَعضِ أحوالِه، وحِكايةُ بعضِ أقوالِ المُشرِكينَ المتعَلِّقةِ به، والرَّدُّ عليها.

مِن أهمِّ المَوضوعاتِ الَّتي اشتَمَلتْ عليها هذه السُّورةُ الكريمةُ:

1– افتُتِحَت هذه السُّورةُ بالثَّناءِ على القُرآنِ الكريمِ، والإشارةِ إلى آياتِ اللهِ المَبثوثةِ في الكَونِ.

2– تَوعُّدُ الأفَّاكينَ بأشَدِّ أنواعِ العذابِ؛ لإصرارِهم على كُفرِهم، واتِّخاذِهم آياتِ اللهِ هُزُوًا.

3– بيانُ جانبٍ مِن نِعَمِ اللهِ تعالى على خَلْقِه.

4– بيانُ مَوقِفِ بني إسرائيلَ مِن نِعَمِ اللهِ تعالى، واختِلافِهم وبَغْيِهم.

5– توجيهُ الأمرِ للنَّبيِّ – ﷺ – بالتَّمَسُّكِ بدِينِ اللهِ، واتِّباعِ شَريعتِه، ونَهْيُه عن اتِّباعِ أهواءِ الجاهِلينَ.

6– حكايةُ بَعضِ أقوالِ الكافِرينَ الباطِلةِ، مع الرَّدِّ عليها بما يُبطِلُها، ويُثبِتُ كَذِبَها.

7– بيانُ بَعضِ أهوالِ يومِ القيامةِ ومَشاهِدِها، وعاقِبةِ الأخيارِ، وعاقِبةِ الأشرارِ.

8– خُتِمَت السُّورةُ الكريمةُ بثَناءِ اللهِ سُبحانَه على ذاتِه بما هو أهلُه.

سُورةُ الجاثيةِ

الآيات (1-6)

حم (1) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (2) إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ
لِلْمُؤْمِنِينَ (3) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (4) وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ
وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ
آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (5) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ
يُؤْمِنُونَ (6)

غَرِيبُ الكَلِماتِ:

لَآيَاتٍ: أي: لَحُجَجًا ودَلالاتٍ، وتُطلقُ الآيةُ أيضًا على: الموعظةِ، والعلامةِ، والعجيبةِ، وغيرِ ذلك، وأصلُ (أيي): النَّظرُ.

يَبُثُّ: أي: يُفَرِّقُ وينشُرُ، وأصلُ (بثث): يدُلُّ على تفريقِ الشَّيءِ.

دَابَّةٍ: الدَّابَّةُ هي كلُّ شَيءٍ دبَّ على وجهِ الأرضِ، ويُستعمَلُ في كلِّ حَيوانٍ، وفي الحشراتِ أكثَر، وأصلُ (دبب): حركةٌ على الأرض أخَفُّ مِن المَشْيِ.

يُوقِنُونَ: أي: يَعلمونَ عِلمًا مُتمَكِّنًا في نُفوسِهم، لا يُمكِنُ أن يَدخُلَه شكٌّ، وأصلُ اليقينِ: زوالُ الشَّكِّ.

وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ: أي: تَحويلِها وتَقليبِها تارةً بالرَّحمةِ، وتارةً بالعَذابِ، وتارةً حارَّةً، وتارةً بارِدةً، وأصلُ (صرف): يدُلُّ على رَجعِ الشَّيءِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

حم (1).

افتُتِحَت هذه السُّورةُ بهذَينِ الحَرفَينِ مِن الحروفِ المقطَّعةِ الَّتي تُستفتَحُ بها كثيرٌ مِن سوَرِ القرآنِ لبيانِ إعجازِه؛ حيثُ تُظهِرُ عجزَ الخَلْقِ عن مُعارَضَتِه بمِثلِه، مع أنَّه مركَّبٌ مِن هذه الحروفِ العربيَّةِ الَّتي يَتحدَّثونَ بها.

تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (2).

أي: تَنزيلُ القُرآنِ مِن عندِ اللهِ المتَّصِفِ بكَمالِ العِزَّةِ؛ فهو الغالِبُ القاهِرُ، العَظيمُ القَدْرِ، المُمتَنِعُ عليه كُلُّ نَقصٍ وعَيبٍ؛ والمُتَّصِفِ أيضًا بالحِكمةِ التَّامَّةِ في شَرْعِه وخَلْقِه وقَدَرِه؛ فيضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه الصَّحيحِ اللَّائِقِ به.

إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (3).

أي: إنَّ في خَلقِ السَّمَواتِ والأرضِ لَعَلاماتٍ باهِرةً، ودلائِلَ واضِحةً على الحَقّ للمُؤمِنينَ دُونَ غَيرِهم.

كما قال تعالى: أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ * وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ [ق: 6 – 8].

وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (4).

أي: وفي خَلقِ اللهِ إيَّاكم –أيُّها النَّاسُ–، وخَلْقِه ما يَنشُرُه ويُفَرِّقُه مِن الدَّوابِّ بأنواعِها: دَلالاتٌ واضِحةٌ، وعَلاماتٌ باهِرةٌ لِقَومٍ يُوقِنونَ بالحَقِّ، فيُقِرُّونَ به، ويَعلَمونَ صِحَّتَه.

كما قال تعالى: وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ [الروم: 20].

وقال سُبحانَه: وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ [الشورى: 29].

وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (5).

وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ.

أي: وفي تَعاقُبِ اللَّيلِ والنَّهارِ دائِبَينِ لا يَفتُرانِ، واختِلافِهما في الطُّولِ والقِصَرِ، والنُّورِ والظُّلْمةِ، إلى غيرِ ذلك.

كما قال تعالى: إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ [آل عمران: 190].

وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا.

أي: وفيما أنزلَ اللهُ مِنَ السَّماءِ مِن ماءٍ، فأنبَتَ به الأرضَ بعدَ جَدْبِها، فأخرَجَ منها أرزاقَ العِبادِ وأقواتَهم.

كما قال تعالى: وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ [الأنعام: 99].

وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ.

أي: وفي تنويعِ الرياحِ بإرسالِها مِن جهاتٍ مُختَلِفةٍ -فتارةً تَهُبُّ مِن جهةٍ، وتارةً مِن أُخرَى- وبصِفاتٍ مُختلِفةٍ؛ فتارةً تكونُ حارَّةً، وتارةً باردةً، وتارةً تكونُ نافعةً، وتارةً ضارَّةً، وتارةً تكونُ رحمةً، وتارةً عذابًا... إلى غيرِ ذلك.

كما قال تعالى: وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ [الروم: 46].

آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ.

أي: في اختلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ، وإنزالِ المطرِ، وإحياءِ الأرضِ به، وتصريفِ الرِّياحِ- دَلالاتٌ واضِحاتٌ وعلاماتٌ باهِراتٌ على الحَقِّ لِقَومٍ يَعقِلونَ عن اللهِ تعالى حُجَجَه، ويَفهَمونَ ما وعَظَهم به مِنَ الآياتِ والعِبَرِ.

كما قال الله سُبحانَه وتعالى: إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ [البقرة: 164].

تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (6).

تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ.

أي: تلك آياتُ اللهِ نُخبِرُك بها -يا مُحمَّدُ- ونَقرَؤُها عليك بواسِطةِ جِبريلَ، مُشتَمِلةً على الحَقِّ والصِّدقِ الخالِصِ، الَّذي لا باطِلَ معه ولا كَذِبَ.

كما قال تعالى: تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ [البقرة: 252].

فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ.

أي: فإنْ لم يُؤمِنِ المُشرِكونَ بهذا القُرآنِ فبأيِّ حديثٍ بَعدَه يُؤمِنونَ ويَنتَفِعونَ ويَعتَبِرون؟! إذ لا أحسَنَ مِن القُرآنِ حَديثًا.

كما قال تعالى: فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ [المرسلات: 50].

وقال سُبحانَه: اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ [الزمر: 23].

سُورةُ الجاثيةِ

الآيات (7–11)

وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (7) يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا
فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (8) وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (9)
مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ
عَذَابٌ عَظِيمٌ (10) هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (11)

غَرِيبُ الكَلِماتِ:

وَيْلٌ: الوَيلُ: كلمةُ دُعاءٍ بالهلاكِ والعذابِ، وتُستعمَلُ أيضًا في التَّحسُّرِ، وقيل: هي وادٍ في جهنَّمَ، أو ما يَسيلُ مِن صديدٍ في أصلِ جهنَّمَ، وأصْلُ الوَيلِ: الشَّرُّ وحُلولُه.

أَفَّاكٍ: أي: كذَّابٍ فاجِرٍ، والأفَّاكُ: كثيرُ الإفْكِ، وهو أسوأُ الكذبِ، وقيل: الإفكُ: صَرْفُ الشَّيءِ عمَّا يحِقُّ أن يكونَ عليه، وأصلُ (أفك): يدُلُّ على قَلبِ الشَّيءِ، وصَرفِه عن جِهَتِه.

أَثِيمٍ: أي: كثيرِ الإثمِ، مُتجاوزٍ في الظُّلمِ، وقيل: هو مرتكبُ الإثمِ بقلبِه وجوارِحِه، وأصلُ (أثم): يدُلُّ على البُطءِ والتَّأخُّرِ، ومنه اشتُقَّ الإثمُ؛ لأنَّ ذا الإثمِ بَطيءٌ عن الخَيرِ، متأخِّرٌ عنه.

هُزُوًا: الهزوُ: الاستِخْفافُ، والسُّخريةُ. يُقالُ: هَزِئَ به واستَهْزَأ، أي: استخفَّ به، وسَخِر منه.

أَوْلِيَاءَ: الأولياءُ: المعبوداتُ الَّتي يُوالونَها بالعبادةِ مِن دونِ الله، وأصْل (ولي): يدُلُّ على قُرْبٍ؛ سواءٌ مِن حيثُ: المكانُ، أو النِّسبةُ، أو الدِّينُ، أو الصَّداقةُ، أو النُّصرةُ، أو الاعتقادُ، وكلُّ مَن وَلِيَ أمرَ آخَرَ فهو وَلِيُّه.

رِجْزٍ: الرِّجزُ: سوءُ العذابِ وأليمُه، وأصلُ (رجز): يدُلُّ على الاضطِرابِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (7).

أي: عَذابٌ وهَلاكٌ لكُلِّ كافرٍ كذَّابٍ مُفترٍ، مُبالِغٍ في اقترافِ الآثامِ.(4)

يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (8).

يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا.

أي: يَسمَعُ آياتِ القُرآنِ تُقرَأُ عليه، ثمَّ يُصِرُّ على كُفرِه وإثمِه مُستَكبِرًا عن الإيمانِ بها وقَبولِها واتِّباعِها، كأنَّه لم يَسمَعْها أصلًا!(5)

---

(4) ذكر ابنُ عطية (٧/ ٥٩١) أن «الويل» في كلام العرب: المصائب والحزن، والهمّ والشدة مِن هذه المعاني، وأنها لفظة تُستعمل في الدعاء على الإنسان.

ثم قال: «وروي في بعض الآثار أن في جهنم واديًا اسمه: ويل».

(5) اختُلف فيمن نزلت فيه الآية على أقوال: الأول: المغيرة بن مخزوم.

الثاني: النّضر بن الحارث.

الثالث: أبو جهل.

ذكره ابنُ عطية (٧/ ٥٩١).

ورجَّح ابنُ عطية العموم، وأن الآية تعمّ كلّ من دخل تحت الأوصاف المذكورة إلى يوم القيامة، وإن كان سببها ما كان يفعله مَن ذُكر.

فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ.

أي: فبَشِّرْ –يا محمَّدُ– هذا الأفَّاكَ الأثيمَ المُعرِضَ عن آياتِ اللهِ، المُصِرَّ على كُفرِه وباطِلِه: بعَذابٍ مُوجِعٍ شَديدِ الإيلامِ.

كما قال تعالى: وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ [لقمان: 7].

وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (9).

وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا.

أي: وإذا عَرَف شَيئًا –ولو قليلًا– مِن آياتِ القُرآنِ، استَهزأَ بها، وسَخِرَ منها.

أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ.

أي: أولئك لهم عَذابٌ يُخزيهم ويُذِلُّهم ويُهينُهم.

مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (10).

مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ.

أي: لهم نارُ جَهنَّمَ يَصيرونَ إليها في الآخِرةِ.[6]

وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا.

أي: ولا يَدفَعُ عن الكُفَّارِ عذابَ جهنَّمَ أيُّ شَيءٍ -ولو قليلًا- ممَّا كَسَبوه في الدُّنيا مِن الأموالِ أو الأولادِ!

كما قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا [آل عمران: 10].

وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ.

أي: ولا يَدفَعُ عنهم آلهتُهم الَّتي عَبَدوها في الدُّنيا مِن دونِ اللهِ، أو رُؤساؤُهم الَّذين أطاعوهم في الكُفرِ باللهِ!

كما قال تعالى: وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ [الأعراف: 197].

(6) ذكر ابنُ عطية (٧/ ٥٩٢) أن بعض المفسرين قال بأن قوله: ﴿مِن ورائهم جهنم﴾ معناه: من أمامهم، ثم علَّق بقوله: «وهذا نحو الخلاف الذي في قوله تعالى: ﴿وكان وراءهم ملك﴾ [الكهف: ٧٩] ولحظ قائل هذه المقالة الأمر من حيث تأول أنّ الإنسان كأنه مِن عمره يسير إلى جنة أو نار، فهما أمامه، وليس لفظ الوراء في اللغة كذلك، وإنما هو ما يأتي خلف الإنسان، وإذا اعتبر الأمر بالتقدم أو التأخر في الوجود على أن الزمان كالطريق للأشياء استقام الأمر، فما يأتي بعد الشيء في الزمان فهو وراءه، فكان الملك وأخذه السفينة وراء ركوب أولئك إياها، وجهنم وإحراقها للكفرة يأتي بعد كفرهم وأفعالهم، وهذا كما تقول: افعل كذا وأنا مِن ورائك عضدًا.

وكما تقول ذلك على التهديد: أنا من وراء التقصي عليك، ونحو هذا».

وقال سُبحانَه: فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ [هود: 101].

وقال عزَّ وجلَّ: وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ * إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ [فاطر: 13، 14].

وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ.

أي: ولهم عَذابٌ كبيرٌ شَديدٌ.

هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (11).

هَذَا هُدًى.

أي: هذا القُرآنُ هُدًى يُبَيِّنُ الحَقَّ مِن الباطِلِ، ويَدُلُّ مَن اتَّبَعه إلى الصِّراطِ المُستَقيمِ.

كما قال تعالى: وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ [النحل: 89].

وقال سُبحانَه: إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ [الإسراء: 9].

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ.

أي: والَّذين كَفَروا بآياتِ القُرآنِ الدَّالَّةِ على الحَقِّ، فلم يُؤمِنوا ويَعمَلوا بها: لهم عَذابٌ مِن جنسِ العذابِ المُوجِعِ شَديدِ الإيلامِ![7]

---

(7) قيل: الرِّجزُ هو أشَدُّ العذابِ.
وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الزمخشري، وابنُ عطية، والرازي، والشوكاني، وابنُ عاشور.
يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (4/287)، ((تفسير ابن عطية)) (5/82)، ((تفسير الرازي)) (27/673)، ((تفسير الشوكاني)) (5/7)، ((تفسير ابن عاشور)) (25/335).
قال الشنقيطي: (وقولُه في هذه الآيةِ الكريمةِ: لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ أصحُّ القولَينِ فيه أنَّ المرادَ بالرِّجزِ: العَذابُ، ولا تَكرارَ في الآيةِ؛ لأنَّ العذابَ أنواعٌ مُتفاوِتةٌ، والمعنى: لهم عَذابٌ مِن جِنسِ العَذابِ الأليمِ، والأليمُ معناه المُؤلِمُ.
أي: الموصوفُ بشِدَّةِ الألمِ وفَظاعتِه).
((أضواء البيان)) (7/196).
وقيل: المرادُ بالرِّجزِ: الرِّجسُ الَّذي هو النَّجاسةُ.
يُنظر: ((تفسير الرازي)) (27/673)، ((تفسير القرطبي)) (16/160).
وفسَّر البِقاعي الرِّجزَ بأنَّه عِقابٌ قَذِرٌ شَديدٌ جدًّا، عظيمُ القَلقَلةِ والاضطرابِ، مُتتابِعُ الحَرَكاتِ.
يُنظر: ((نظم الدرر)) (18/74).
قال الرازي: (وقُرِئَ أَلِيمٌ بالجَرِّ والرَّفعِ؛ أمَّا الجَرُّ فتقديرُه: لهم عَذابٌ مِن عذابٍ أليمٍ، وإذا كان عَذابُهم مِن عذابٍ أليمٍ كان عذابُهم أليمًا، ومَن رَفَع كان المعنى: له عَذابٌ أليمٌ، ويكونُ المرادُ مِن الرِّجزِ الرِّجْسَ الَّذي هو النَّجاسةُ، ومعنى النَّجاسةِ فيه قولُه: وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ [إبراهيم: 16]، وكأنَّ المعنى: لهم عَذابٌ مِن تَجَرُّعِ رِجسٍ أو شُرْبِ رِجسٍ، فتَكونُ مِنْ تَبيينًا للعَذابِ).
((تفسير الرازي)) (27/673).

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: أَلِيمٌ قِراءتانِ:

1- قِراءةُ أَلِيمٌ بالرَّفعِ وصْفًا للعذابِ، أي: عذابٌ أليمٌ مِن رِجزٍ.(8)

2- قِراءةُ أَلِيمٍ بالجَرّ وصفًا للرِّجْزِ، أي: عذابٌ مِن رِجزٍ أليمٍ.(9)

(8) قرأ بها ابنُ كثير، ويعقوبُ، وحفصٌ.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (349/2).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: 292)، ((معاني القراءات)) للأزهري (288/2).

(9) قرأ بها الباقون.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (349/2).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: 292)، ((معاني القراءات)) للأزهري (288/2).

سُورةُ الجاثيةِ

الآيات (12–15)

اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ
(12) وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ (13) قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ (14) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (15)

غَريبُ الكَلِماتِ:

الْفُلْكُ: أي: السُّفُنُ، وواحدُه وجمْعُه بلفظٍ واحدٍ، وأصلُ (فلك): يدُلُّ على استِدارةٍ في الشَّيءِ، ولعلَّ السُّفنَ سُمِّيتْ فُلكًا؛ لأنَّها تُدارُ في الماءِ.

وَسَخَّرَ: أي: ذلَّلَ، والتَّسخيرُ: سياقةٌ إلى الغرضِ المختصِّ قهرًا، وأصلُ (سخر) هنا: يدُلُّ على استِذْلالٍ.

أَيَّامَ اللَّهِ: أي: وقائِعَ اللهِ بأعدائِه، مِن قَولِهم لوقائِعِ العَرَبِ: أيَّامُ العَرَبِ. أو ثَوابَ اللهِ وعِقابَه.

تَفسيرُ الآياتِ:

اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (12).

اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ.

أي: اللهُ هو الَّذي ذَلَّل لكم البَحرَ –أيُّها النَّاسُ–؛ لِتَسيرَ فيه السُّفُنُ بأمْرِه وإذْنِه وتَيسيرِه.

وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ.

أي: ولِتَطلُبوا مَعايشَكم وأرزاقَكم الَّتي هي مِن فَضلِ الله تعالى عليكم؛ كنَقلِ البَضائعِ، وصَيدِ الأسماكِ، وغيرِ ذلك.

وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ.

أي: ولعَلَّكم تَشكُرونَ اللهَ على نِعَمِه العَظيمةِ الَّتي تَحصُلُ بتَسخيرِه لكم البَحرَ، فتُوَحِّدونَه، وتُطيعونَه فيما أمرَكم به ونهاكم عنه.

وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (13).

وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ.

أي: وذلَّل اللهُ لكم -أيُّها النَّاسُ- ما في السَّمَواتِ مِن شَمسٍ وقَمَرٍ، ونُجومٍ وسَحابٍ، ومَطَرٍ وهواءٍ، وغيرِ ذلك، وما في الأرضِ مِن شَجَرٍ وجِبالٍ، ومِياهٍ ودوابَّ ومَعادِنَ... وغيرِ ذلك؛ لِمَنافِعِكم، وجميعُ ذلك مِنَ اللهِ وَحْدَه!

كما قال تعالى: وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ [النحل: 53].

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ.

أي: إنَّ في ذلك الأمرِ العَظيمِ، وهو تَسخيرُه كُلَّ شَيءٍ في الكَونِ لعِبادِه: لَدَلالاتٍ واضِحاتٍ، وعلاماتٍ باهِراتٍ على الحَقِّ لِقَومٍ يَتفَكَّرونَ فيها.

قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (14).

قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- آمِرًا الَّذين آمنوا باللهِ واتَّبَعوك أن يَعفُوا ويَتجاوَزوا عن أذى الكُفَّارِ الَّذين لا يَرجُونَ ثوابَ الله، ولا يخافونَ وقائِعَه في العاصِينَ، وأنْ يَصبِروا على أذاهم، ولا يُعاقِبوهم.

كما قال تعالى: وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ [إبراهيم: 5].

وعن أُسامةَ بنِ زَيدٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((كان رَسولُ اللهِ - ﷺ - وأصحابُه يَعفُونَ عن المُشرِكينَ وأهلِ الكِتابِ كما أمَرَهم اللهُ، ويَصبِرون على الأذى)).[10]

لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ.

أي: إنَّما أُمِرَ المُؤمِنونَ بالمَغفِرةِ لِلَّذِين يُؤذونَهم؛ لِيَجزيَ اللهُ أعداءَهم هؤلاء بما كَسَبوه مِن آثامٍ، فيُعَذِّبَهم.

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (15).

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ.

أي: مَن عَمِلَ في الدُّنيا بطاعةِ اللهِ، فامتَثَل أوامِرَه، واجتَنَب نواهيَه؛ فنَفْعُ ذلك له.

كما قال تعالى: وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ [الروم: 44، 45].

وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا.

أي: ومَن عَمِلَ بالكُفرِ والمعاصي فضَرَرُ ذلك ووَبالُه على نَفْسِه، لا على غَيرِه.

كما قال تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ [يونس: 23].

---

(10) رواه البخاري (6207).

وقال سُبحانَه: مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ [الروم: 44].

ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ.

أي: ثمَّ إلى رَبِّكم تَصيرونَ –أيُّها النَّاسُ– بعدَ مَوتِكم أحياءً يومَ القيامةِ، فيُجازيكم على أعمالِكم؛ خَيرِها وشَرِّها.

سُورةُ الجاثيةِ

الآيات (16–20)

وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (16) وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (17) ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (18) إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (19) هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (20)

غَريبُ الكَلِماتِ:

بَغْيًا: أي: فَسادًا وطُغيانًا وتَعدِّيًا، وأصلُ البَغيِ: يدُلُّ على الفَسادِ، وتجاوُزِ الحَدِّ؛ يُقالُ: بَغَتِ السَّماءُ: إذا كثُرَ مَطَرُها حتَّى تجاوَزَ الحَدَّ. ويُقالُ أيضًا: بَغَى الجُرحُ: إذا تورَّمَ واشتَدَّ وترامَى بالفَسادِ.

شَرِيعَةٍ: أي: مِلَّةٍ ومَذهَبٍ وطَريقةٍ، والشَّرْعُ والشِّرْعةُ والشَّريعةُ: الطَّريقةُ الظَّاهِرةُ، ونَهجُ الطَّريقِ الواضِحِ، وتُسَمَّى مَعالِمُ الدِّينِ شَريعةً؛ لِوُضوحِها، وأصلُها مِنَ الشَّرعِ: وهو البَيانُ والإظهارُ.

أَهْوَاءَ: الأهواءُ: المذاهِبُ الَّتي تدعو إليها الشَّهوةُ دونَ الحُجَّةِ، وأصلُه: يدُلُّ على الخُلُوِّ والسُّقُوطِ، وسُمِّيَ الهوى هَوًى؛ لأنَّه يَهوِي بصاحِبِه في النَّارِ.

أَوْلِيَاءُ: أي: أصدقاءُ ونُصراءُ، والوِلايةُ النُّصرةُ، وأصْل (ولي): يدُلُّ على قُرْبٍ؛ سواءٌ مِن حيثُ: المكانُ، أو النِّسبةُ، أو الدِّينُ، أو الصَّداقةُ، أو النُّصرةُ، أو الاعتقادُ، وكلُّ مَن وَلِيَ أمْرَ آخَرَ فهو وَلِيُّه.

بَصَائِرُ: أي: حُجَجٌ بَيِّنةٌ، ودَلالاتٌ ظاهِرةٌ، واحِدتُها بَصيرةٌ: وهي الدَّلالةُ الَّتي تُوجِبُ إبصارَ النُّفوسِ للشَّيءِ، ومنه يُقالُ للدَّمِ الَّذي يُستَدَلُّ به على القَتيلِ: بَصيرةٌ، أو: هي البُرهانُ القاطِعُ الَّذي لا يَترُكُ في الحقِّ لَبْسًا، وأصلُها يدُلُّ على ظُهورِ الشَّيءِ وبَيانِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (16).

وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ.

أي: ولقد أعْطَيْنا بني إسرائيلَ الكِتابَ، والحُكْمَ، وجعَلْنا فيهم كثيرًا مِن الأنبياءِ.

وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ.

أي: ورَزَقْنا بني إسرائيلَ مِن الرِّزقِ الحَلالِ الطَّيِّبِ.

قال تعالى: وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ [البقرة: 57].

وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ.

أي: وفضَّلْنا بني إسرائيلَ على عالَمِي زمانِهم.

كما قال تعالى: يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ [البقرة: 47].

وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (17).

وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ.

أي: وآتَيْنا بَني إسرائيلَ آياتٍ واضِحاتِ الحُجَجِ.(11)

كما قال تعالى: وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ [آل عمران: 105].

فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ.

أي: فما تفرَّقَ بنو إسرائيلَ واختَلَفوا فيما بيْنَهم إلَّا مِن بَعدِ ما جاءهم العِلمُ الَّذي يُبَيِّنُ لهم ما يَتَّقُون، ويوجبُ عدَمَ الاختِلافِ، وإنَّما حمَلهم على ذلك الظُّلْمُ واعتداءُ بعضِهم على بعضٍ، والحسدُ وطلبُ الرِّياسةِ.

كما قال تعالى: وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ [البقرة: 213].

---

(11) ذكر ابنُ عطية (٨/ ٥٩٧) أن قوله: ﴿من الأمر﴾ يحتمل احتمالين: الأول: أن يكون واحد الأمور، أي: من دون الله ونبواته التي بثها في سالف الزمان.

الثاني: أن يكون مصدرًا من أمر يأمر، أي: على شريعة من الأوامر والنواهي، فسمّى الله تعالى جميع ذلك أمرًا.

وقال سُبحانَه: وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ [يونس: 93].

وقال الله عزَّ وجلَّ: وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ [الشورى: 14].

إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ.

أي: إنَّ ربَّك –يا محمَّدُ– يحكُمُ بالعَدلِ بيْنَ أولئك المُختَلِفينَ مِن بني إسرائيلَ يومَ القيامةِ فيما كانوا في الدُّنيا يختَلِفونَ فيه، فيُمَيِّزُ الحقَّ مِن المُبطِلِ، ويُجازي كُلًّا منهم بما يَستحِقُّ.

ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (18).

ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا.

أي: ثمَّ جعلْناك –يا محمَّدُ– مِن بَعدِ أن آتَينا بني إسرائيلَ الكِتابَ والحُكمَ والنُّبُوَّةَ: على طَريقةٍ مُستقيمةٍ ومِنهاجٍ واضِحٍ مِن الدِّينِ؛ فاتَّبِعْ شَريعةَ اللهِ الَّتي أوحاها إليك.

كما قال تعالى: فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [الزخرف: 43].

وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ.

أي: ولا تتَّبِعْ –يا محمَّدُ– ما يَدعوك إليه المُشرِكونَ الجاهِلونَ باللهِ ودِينِه مِن مُخالَفةٍ لِشَرعِ اللهِ، فلا تَعمَلْ بدِينِهم وآرائِهم، ولا تُوافِقْهم في باطِلِهم.

كما قال تعالى: قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ [البقرة: 120].

وقال سُبحانَه: وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ [الأنعام: 150].

إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (19).

إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا.

أي: إنَّ الجاهِلينَ الَّذين يَدْعونك -يا محمَّدُ- لاتِّباعِ أهوائِهم: لن يَنفَعوك عندَ اللهِ بشَيءٍ، ولن يَدفَعوا عنك شَيئًا مِن عذابِ اللهِ إنِ اتَّبعْتَ أهواءَهم، وخالَفْتَ ما شرَعَ اللهُ لك.

وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ.

أي: وإنَّ الظَّالِمينَ يَتولَّى بَعضُهم بعضًا؛ فهم أنصارٌ وأحبابٌ فيما بيْنَهم، وأعوانٌ على المؤمنينَ.

كما قال تعالى: وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ [الأنعام: 129].

وقال سُبحانَه: وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ [الأنفال: 73].

وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ.

أي: واللهُ ناصِرٌ ومُعِينٌ لِلمُتَّقِينَ الَّذين يَتَّقونَ سَخَطَ اللهِ وعَذابَه، بامتِثالِ ما أمَرَ، واجتِنابِ ما نَهَى.

كما قال الله تعالى: اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ [البقرة: 257].

وقال سُبحانَه: وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ [الأعراف: 196].

هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (20).

هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ.

أي: هذا القُرآنُ دلائِلُ ساطِعةٌ يُبصِرُ بها النَّاسُ الحَقَّ مِن الباطِلِ، ويَعرِفونَ بها الصَّوابَ في جميعِ أُمورِهم.

كما قال تعالى: قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا [الأنعام: 104].

وقال سُبحانَه: قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ [الأعراف: 203].

وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ.

أي: وهذا القُرآنُ يَهدي إلى الحقّ في الدُّنيا، وإلى الجنَّةِ في الآخِرةِ، ورَحمةٌ في الدُّنيا والآخِرةِ للمُوقِنينَ.

كما قال الله تعالى: وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ [الأعراف: 52].

وقال سُبحانَه وتعالى: وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ [الأعراف: 203].

سُورةُ الجاثيةِ

الآيات (21–23)

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (21) وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (22) أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (23)

غَريبُ الكَلِماتِ:

اجْتَرَحُوا: أي: اكتَسَبوا وعَمِلوا، ومِنه الجارِحةُ للأعضاءِ الَّتي يُكتَسَبُ بها كالأيدي، وأصلُ (جرح): يدُلُّ على كَسْبٍ.

وَخَتَمَ: أي: طبَعَ وربَطَ، وأصلُ (ختم): يدُلُّ على التَّغطيةِ على الشَّيءِ، والاستيثاقِ منه، بألَّا يَدخُلَه شَيءٌ، ولا يَخرُجَ منه شَيءٌ.

غِشَاوَةً: أي: غِطاءً وساترًا، وأصلُ (غشي): يدُلُّ على التَّغطيةِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (21).

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ.

أي: أمْ ظَنَّ الَّذين عَمِلوا السَّيِّئاتِ في الدُّنيا واكتَسَبوها أن نُساوِيَهم في حياتِهم ومَوتِهم بالَّذين آمَنوا وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحةَ؟! كلَّا؛ فليس المُؤمِنونَ سَواءً مع الكفَّارِ، لا في المَحيا ولا في المماتِ.[12]

كما قال تعالى: أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ [ص: 28].

وعن جابِرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: سَمِعتُ النَّبيَّ - ﷺ - يقولُ: ((يُبعَثُ كُلُّ عَبدٍ على ما مات عليه)).[13]

---

(12) ساق ابنُ عطية (٨/ ٥٩٩) أن هذه الآية متناولة بلفظها حال العصاة من حال أهل التقوى، وهي موقف للعارفين فيبكون عنده، وساق هذه الأقوال، ثم نقل عن الثعلبي أنه قال: كانت هذه الآية تسمّى مبكى العابدين.

وعلَّق بقوله: «وأما لفظها فيعطي أنه اجتراح الكفر بدليل معادلته بالإيمان، ويحتمل أن تكون المعادلة بين الاجتراح وعمل الصالحات، ويكون الإيمان في الفريقين، ولهذا بكى الخائفون».

(13) رواه مسلم (2878).

سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ.

أي: بِئسَ هذا الحُكمُ الَّذي حَسِبَه المُشرِكونَ؛ أنَّ اللهَ يُساوِي بيْنَ الَّذين عَمِلوا السَّيِّئاتِ والَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ في مَحياهم ومماتِهم!

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قولِه تعالى: سَوَاءً قِراءتانِ:

1- قِراءةُ: سَوَاءً بالنَّصبِ، على معنى: أمْ حَسِبَ الَّذين اجترَحوا السَّيِّئاتِ أن نجعَلَ حياتَهم وموتَهم كحياةِ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ وموتِهم؟! كلَّا، لا يَستوي الفَريقانِ حياةً ولا مَوتًا.(14)

2- قِراءةُ: سَوَاءٌ بالرَّفعِ. قيل: هي جُملةٌ استِئنافيَّةٌ معناها: أنَّ مَحْيا المؤمِنِ ومَماتَه سواءٌ؛ فيَحيا مؤمِنًا، ويموتُ كذلك على الإيمانِ، ويُبعَثُ عليه، ومَحْيا الكافِرِ ومَماتَه سواءٌ؛ فيَحيا كافِرًا، ويموتُ كذلك على الكُفرِ، ويُبعَثُ عليه. وقيل: هي داخِلةٌ في حيِّزِ الجُملةِ الاستِفهاميَّةِ السَّابِقةِ، ومعناها يَرجِعُ للقِراءةِ الأُولى.(15)

---

(14) قرأ بها حفصٌ عن عاصمٍ، وحمزةُ، والكِسائيُّ، وخلَفٌ.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (372/2).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (376/2، 377)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 661)، ((الدر المصون)) للسمين (648/9).

(15) قرأ بها الباقون.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (372/2).

وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (22).

وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ.

أي: وخَلَقَ اللهُ السَّموَاتِ والأرضَ بالعَدلِ والحِكمةِ.

كما قال تعالى: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ [الدخان: 38، 39].

وقال سُبحانَه: وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ [آل عمران: 191].

وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ.

أي: ولِيُثيبَ اللهُ كُلَّ عامِلٍ بما عَمِلَه مِن خَيرٍ أو شَرٍّ، وبما يَستَحِقُّه مِن ثوابٍ أو عِقابٍ.

كما قال تعالى: الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ [غافر: 17].

وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ.

أي: ولا يَظلِمُ اللهُ النَّاسَ شَيئًا مِن جزاءِ أعمالِهم؛ بنَقصِ ثَوابِهم، أو زيادةِ عِقابِهم.

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (377/2)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 661)، ((الوسيط)) للواحدي (98/4)، ((الدر المصون)) للسمين (649/9، 650).

أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (23).

أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ.

أي: أفرأَيتَ –يا محمَّدُ– الَّذي جَعَل مَعبودَه ما يَهواه، فيَعبُدُ ويُطيعُ ما هَوِيَه دونَ اللهِ المُستَحِقّ للعِبادةِ وَحْدَه؟![16]

كما قال تعالى: أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا [الفرقان: 43].

---

(16) اختُلف في معنى قوله: ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾ على قولين: الأول: أفرأيت من اتخذ دينه بهواه، فلا يهوى شـيئًا إلا ركبه.

الثاني: أفرأيت من اتخذ معبوده ما هويت عبادَته نفسُه من شيء.

وعلَّق ابنُ عطية (٨/ ٦٠٠) على القول الثاني الذي قاله سـعيد بن جُبير، ومقاتل، وسـفيان، بقوله: «إذ كانوا يعبدون ما يهوون من الحجارة».

ثم بيّن أن هذه الآية وإن كانت نزلت في هوى الكفر فهي متناولة جميع هوى النفس الأمّارة.

ورجَّح ابنُ جرير (٢١/ ٩٣) –مسـتندًا إلى ظاهر الآية– القول الثاني، فقال: «وأولى التأويلين في ذلك بالصـواب قول من قال: معنى ذلك: أفرأيت –يا محمد– مَن اتخذ معبوده هواه، فيعبد ما هوي مِن شيء دون إله الحق الذي له الألوهة من كل شيء؛ لأن ذلك هو الظاهر من معناه دون غيره».

وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ.

أي: وأضلَّ اللهُ ذلك المُتَّبِعَ هواه عن طَريقِ الحَقِّ، على عِلمٍ مِن الله سبَق أنَّه يَضِلُّ ولا يَهتَدي.(17)

وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ.

أي: وطَبَع اللهُ على سَمْعِه، فلا يَنتَفِعُ بسَماعِ الحَقِّ، وطَبَع على قَلبِه فلا يَعقِلُ به الحَقَّ؛ فليس له طريقٌ إلى الهُدى بسَمعِه ولا قَلبِه.

كما قال تعالى: خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ [البقرة: 7].

وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً.

---

(17) قال ابنُ القيم (٢/ ٤٤٨): «المعنى: أضلّه الله عالِمًا به وبأقواله، وما يناسبه ويليق به، ولا يصلح له غيره قبل خلقه وبعده، وأنّه أهلٌ للضلال، وليس أهلًا أن يهدى، وأنه لو هدي لكان قد وضع الهدى في غير محله، وعند مَن لا يستحقه، والربّ تعالى حكيم إنما يضع الأشياء في محالها اللائقة بها، فانتظمت الآية على هذا القول في إثبات القدر والحكمة التي لأجلها قدّر عليه الضلال».

ونقل ابنُ عطية (٨/ ٦٠٠ – ٦٠١) عن فرقة أنها قالت: أي: على علمٍ من هذا الضلال، فإنّ الحقّ هو الذي يُترك ويُعرض عنه.

وعلَّق عليه بقوله: «فتكون الآية –على هذا التأويل– مِن آيات العناد؛ من نحو قوله: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم﴾ [النمل: ١٤]».

ثم قال: «وعلى كلا التأويلين فقوله تعالى: ﴿على علم﴾ حال».

وذكر ابنُ القيم (٢/ ٤٤٧ – ٤٤٨) أنه على الأول يكون: ﴿على علم﴾ حال من الفاعل، والمعنى: أضله الله عالِمًا بأنه من أهل الضلال في سابق علمه، وعلى الثاني حال من المفعول، أي: أضلّه الله في حال عِلم الكافر بأنه ضال.

وساق ابنُ كثير (١٢/ ٣٦٢) القولين، ثم علَّق بقوله: «والثاني يستلزم الأول، ولا ينعكس».

أي: وجَعَل اللهُ على بَصَرِه غِطاءً يَمنَعُه مِن رُؤيةِ الحَقّ، فهو لا يَنتَفِعُ ببَصَرِه لِمَعرفةِ الحَقّ واتِّباعِه.

فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ.

أي: لا أحَدَ يَهديه إلى طريقِ الحَقِّ واتِّباعِه بعدَ أن أضَلَّه اللهُ!

أَفَلَا تَذَكَّرُونَ.

أي: أفلا تتذَكَّرونَ -أيُّها النَّاسُ- فتَعلَموا أنَّ مَن كان هذا حالَه فلنْ يَهتديَ أبدًا، ولا سبيلَ لأحدٍ إلى هِدايتِه؟!

سُورةُ الجاثيةِ

الآيات (24–26)

وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (24) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (25) قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (26)

غَريبُ الكَلِماتِ:

الدَّهْرُ: أي: مَرُّ الزَّمانِ، وطُولُ العُمُرِ، واختِلافُ اللَّيلِ والنَّهارِ، وأصلُ (دهر): يدُلُّ على الغَلَبةِ والقَهرِ، وسُمِّيَ الدَّهرُ دَهرًا؛ لأنَّه يأتي على كُلِّ شَيءٍ ويَغلِبُه.

رَيْبَ: الرَّيبُ: الشَّكُّ، أو هو الشَّكُّ معَ الخَوفِ، ومعَ تُهَمَةِ المشكوكِ فيه، وتوهُّم أمْرٍ ما بالشَّيءِ، والرَّيبُ مصدرُ: رابَني الشَّيءُ: إذا حصَل فيه الرِّيبةُ، وهي قلَقُ النَّفْسِ واضْطِرابُها.

تَفسيرُ الآياتِ:

وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (24).

وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا.

أي: وقال الكُفَّارُ تَكذيبًا للبَعثِ بعدَ المَوتِ: ما ثَمَّ حياةٌ غَيرُ حياتِنا هذه الَّتي نَحياها الآنَ!

كما قال تعالى: وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ [الأنعام: 29].

نَمُوتُ وَنَحْيَا.

أي: يموتُ أناسٌ، ويَحيا آخَرونَ في هذه الحياةِ، وليس ثَمَّةَ حياةٌ أُخرَى.

وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ.

أي: وما يُفنِينا إلَّا الزَّمانُ، فنَبلُغُ فيه بمُرورِ أيَّامِه ولياليه سِنَّ الهَرَمِ والشَّيخوخةِ، فنَموتُ، أو تُصيبُنا فيه أسبابٌ تُفضي بنا إلى الهَلاكِ والموتِ!

وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ.

أي: وما للمُشرِكينَ أيُّ قَدْرٍ مِنَ العِلمِ بصِحَّةِ ما يقولونَ مِن إنكارِ البَعثِ، ولا بُرهانَ لديهم يُثبِتُ أنَّ الدَّهرَ هو الَّذي يُهلِكُهم كما يَزعُمونَ!

إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ.

أي: ما يَقولونَ ذلك إلَّا بمُجَرَّدِ الظَّنِّ، وليسوا على يَقينٍ مِمَّا يَدَّعُونَ.

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (25).

أي: وإذا تُتْلى عليهم آياتُ القُرآنِ الواضِحاتُ الدَّالَّةِ على وُقوعِ البَعثِ بعدَ الموتِ، لم يكُنْ لهم ما يَحتَجُّونَ به على المؤمنِينَ سِوى قَولِهِم: أحيُوا آباءَنا الموتى إنْ كُنتُم صادِقِينَ في دَعواكم أنَّ اللهَ يَبعَثُنا بعدَ مَوتِنا؛ حتَّى نُصَدِّقَ بحَقيقةِ ما تَزعُمونَ!

كما قال تعالى: إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ * إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ * فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ [الدخان: 34 – 36].

قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (26).

قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لهؤلاء المُكَذِّبينَ بالبَعثِ: اللهُ هو الَّذي يُحييكم في الدُّنيا ما شاءَ، ثُمَّ يُميتُكم متى شاء عندَ انقِضاءِ آجالِكم.

كما قال تعالى: كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ [البقرة: 28].

ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ.

أي: ثمَّ يجمَعُكم اللهُ جميعًا ليومِ القيامةِ أحياءً، لا شَكَّ في وُقوعِ ذلك، وإحيائِكم بعدَ موتِكم.

كما قال تعالى: اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا [النساء: 87].

وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ.

أي: ولكِنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يَعلَمونَ الحقَّ، فمِنْ جَهلِهم يُنكِرونَ المَعادَ، وبَعْثَ العِبادِ!

سُورةُ الجاثيةِ

الآيات (27–30)

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ (27) وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (28) هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (29) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (30)

غَريبُ الكَلِماتِ:

السَّاعَةُ: أي: يومُ القِيامةِ، والسَّاعةُ هي الوقتُ القَليلُ والجُزءُ مِن أجزاءِ الزَّمانِ، ويُعبَّرُ بها عن القِيامةِ؛ تَشبيهًا بذلك لسُرعةِ الحسابِ فيها، وأصْلُ (سوع): يدُلُّ على استِمرارِ الشَّيءِ ومُضِيِّه.

الْمُبْطِلُونَ: أي: المكَذِّبون الكافِرونَ أصحابُ الأباطيلِ، وأصلُ (بطل): يدُلُّ على ذَهابِ الشَّيءِ، وقِلَّةِ مُكثِه.

جَاثِيَةً: أي: باركةً على الرُّكَبِ، وهي جِلسةُ المخاصِمِ بيْنَ يَدَي الحاكِمِ يَنتظِرُ القضاءَ.

نَسْتَنْسِخُ: أي: نَكتُبُ ونُثبِتُ، والنَّسخُ: إزالةُ شَيءٍ بشَيءٍ يتَعَقَّبُه، وتارةً يُفهَمُ منه الإزالةُ، وتارةً يُفهَمُ منه الإثباتُ، وتارةً يُفهَمُ منه الأمرانِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ (27).

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.

أي: ولله وَحْدَه مُلكُ جَميعِ السَّمَواتِ والأرضِ؛ فهو خالِقُهما والمتصَرِّفُ فيهما دونَ الدَّهرِ وغيرِه ممَّا يَزعُمُ المُشرِكونَ أنَّ له تصَرُّفًا في الكَونِ!

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ.

أي: ويَومَ تَجيءُ القِيامةُ يَخسَرُ الكافِرونَ أصحابُ الأباطيلِ، فيَصيرونَ إلى النَّارِ.

كما قال تعالَى: قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ [يونس: 45].

وقال سُبحانَه: فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ [غافر: 78].

وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (28).

وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً.

أي: وترى في ذلك اليَومِ –يا محمَّدُ– أهلَ كُلِّ مِلَّةٍ جالِسينَ على رُكَبِهم،(18) مُنتَظِرينَ قَضاءَ اللهِ تعالَى وحُكمَه عليهم.

كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا.

أي: كلُّ أهلِ مِلَّةٍ تُدعَى يومَ القِيامةِ إلى صَحائِفِ أعمالِها التي كتبَتْها الملائِكةُ.(19)

كما قال تعالَى: وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا [الإسراء: 13، 14].

(18) اختُلف في المراد بقوله: ﴿جاثية﴾ على قولين: الأول: أي: على الركب.

الثاني: متميزة.

ورجَّح ابنُ كثير (١٢/ ٣٦٥) القول الأول دون الثاني الذي قاله عكرمة، فقال: «والأول أولى».

ولم يذكر مستندًا.

وساق حديث أبي هريرة مرفوعًا في حديث الصور: «فيتميز الناس وتجثو الأمم».

وهي التي يقول الله: ﴿وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها﴾.

وعلَّق عليه بقوله: «وهذا فيه جمع بين القولين، ولا منافاة».

(19) ذكر ابنُ عطية (٧/ ٦٠٤ – ٦٠٥) أنه اختُلف في قوله: ﴿إلى كتابها﴾ على قولين: الأول: أنه أراد إلى كتابها المنزل عليها فتحاكم إليه، هل وافقته أو خالفته؟ الثاني: أراد إلى كتابها الذي كتبته الحفظة على كل واحد من الأمة، فباجتماع ذلك قيل له كتابها.

ثم علَّق بقوله: «وهنا محذوف يدل عليه الظاهر، تقديره: يقال لهم: ﴿اليوم تجزون﴾».

وقال سُبحانَه: يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا [الإسراء: 71].

الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ.

أي: يُقالُ للأُمَمِ يومَ القِيامةِ: اليومَ تَنالُونَ جَزاءَ ما كنتُم تَعمَلونَه في الدُّنيا مِن خَيرٍ أو شَرٍّ.

هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (29).

هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ.

أي: يُقالُ للأُمَمِ يومَ القِيامةِ: هذا كِتابُنا يَشهَدُ عليكم بجَميعِ أعمالِكم التي كتَبَتْها الملائكةُ، فيُبَيِّنُها بما هو مُوافِقٌ للحَقيقةِ والواقِعِ دونَ زِيادةٍ أو نُقصانٍ.

كما قال تعالَى: وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا [الكهف: 49].

وقال سُبحانَه: وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ [المؤمنون: 62].

إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ.

أي: إنَّا كُنَّا نَأمُرُ الملائِكةَ أنْ تَكتُبَ ما كنتم تعمَلونَه في الدُّنيا مِن خَيرٍ أو شَرٍّ.[20]

فَأَمَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (30).

فَأَمَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ.

أي: فأمَّا الَّذين آمَنوا باللهِ تعالى وبكلِّ بما يجِبُ عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحةَ الخالِصةَ الموافِقةَ لِشَرعِه: فيُدخِلُهم رَبُّهم في جَنَّتِه.

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال النَّبيُّ – ﷺ –: ((تحاجَّتِ الجنَّةُ والنَّارُ؛ فقالت النَّارُ: أُوثِرتُ بالمتكَبِّرينَ والمتجَبِّرينَ! وقالت الجنَّةُ: ما لي لا يَدخُلُني إلَّا ضُعَفاءُ النَّاسِ وسَقَطُهم؟![21] قال اللهُ تَبارك وتعالَى للجنَّةِ: أنتِ رَحْمَتي أرحَمُ بكِ مَن أشاءُ مِن عِبادي. وقال للنَّارِ: إنَّما أنتِ عَذابي أعَذِّبُ بكِ مَن أشاءُ مِن عِبادي، ولكُلِّ واحِدةٍ منهما مِلؤُها؛ فأمَّا النَّارُ فلا تَمتلِئُ حتى يَضَعَ رِجْلَه، فتقولُ: قَطْ

---

(20) اختُلِف في قوله: ﴿إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾ على قولين: الأول: أن أعمال بني آدم مكتوبة سلفًا، والملائكة تستنسخ عمل كل يوم بيوم.

الثاني: كتابة الملائكة لما يعمله الناس بعد أن يعملوه.

وذكر ابنُ القيم (٢/ ٤٤٩) أنّ الآية تعُمّ القولين، فقال: «وهو الأظهر أن الآية تعُمّ الأمرين».

وزاد ابنُ عطية (٧/ ٦٠٥) قولًا ثالثًا، ونسبه لابن عباس، وهو أنّ الله تعالى يأمر بعرض أعمال العباد كل يوم خميس، فيُنقل من الصحف التي رفع الحفظة كل ما هو معدٌّ أن يكون عليه ثواب أو عقاب ويلغى الباقي.

(21) وسَقَطُهم: أي: أردَؤُهم وأكثَرُهم خُمولًا، وأقلُّهم اعتِبارًا، المُحقَّرونَ فيما بينهم، السَّاقِطونَ عن أعيُنِهم.

يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (3628/9).

قَطْ،[22] فهنالك تَمتَلِئُ ويُزوَى[23] بعضُها إلى بعضٍ، ولا يَظلِمُ اللهُ عزَّ وجَلَّ مِن خَلْقِه أحدًا، وأمَّا الجنَّةُ فإنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ يُنشِئُ لها خَلْقًا)).[24]

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ – ﷺ –: ((لنْ يُدخِلَ أحدًا منكم عَمَلُه الجنَّةَ. قالوا: ولا أنتَ يا رسولَ اللهِ؟! قال: ولا أنا إلَّا أنْ يَتغَمَّدَني اللهُ منه بفَضلٍ ورَحمةٍ)).[25]

ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ.

أي: دُخولُ المُؤمنينَ الجنَّةَ يومَ القِيامةِ هو الفَوزُ البَيِّنُ الظَّاهِرُ.

---

(22) قَطْ: حَسْبي، أي: يَكْفيني هذا.
يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (182/17).
(23) ويُزْوَى: أي: يُضمُّ بعضُها إلى بعضٍ فتجتمِعُ وتَلْتقي على مَن فيها.
يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (182/17).
(24) رواه البخاري (4850) واللفظ له، ومسلم (2846).
(25) رواه البخاري (5673)، ومسلم (2816) واللفظ له.

سُورةُ الجاثيةِ

الآيات (31-35)

وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ (31) وَإِذَا
قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا
نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (32) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (33)
وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (34)
ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ
يُسْتَعْتَبُونَ (35)

غَريبُ الكَلِماتِ:

بِمُسْتَيْقِنِينَ: أي: بمُتحقِّقينَ. مِنَ اليَقينِ: وهو عِلمٌ حاصِلٌ بالاستِدلالِ، وهو فَوقَ المَعرفةِ والدِّرايةِ، وأصلُ (يقن): يدُلُّ على زَوالِ الشَّكِّ.

وَبَدَا: أي: ظهَرَ ظُهورًا بيِّنًا، وأصلُ (بدو): ظُهورُ الشَّيءِ.

وَحَاقَ: أي: أحاطَ ونزَل، وأصلُ (حيق): يدُلُّ على نُزولِ الشَّيءِ بالشَّيءِ.

وَمَأْوَاكُمُ: أي: مَصيرُكم ومقامُكم ومَثواكم، أو: مَرجعُكم الذي تَعودونَ إليه، والمأوَى: مكانُ كلِّ شَيءٍ ومَرجعُه الَّذي يَعودُ إليه ليْلًا أو نَهارًا؛ يُقالُ: أوَى إلى كذا، أي: انضمَّ إليه، وأصلُه: التَّجمُّعُ.

هُزُوًا: أي: استهزاءً وسُخريةً ولَعِبًا، وهو مِن الهُزءِ الذي هو المزْحُ في خُفيةٍ.

وَغَرَّتْكُمُ: أي: خَدَعَتْكم، يُقالُ: غَرِرْتُ فلانًا: أصبْتُ غِرَّتَه، ونِلْتُ منه ما أُريدُه، والغِرَّةُ: غَفْلةٌ في اليقظةِ، وأصلُ ذلك مِن الغَرِّ، وهو الأثرُ الظَّاهرُ مِن الشَّيءِ.

يُسْتَعْتَبُونَ: أي: يُطلَبُ منهم أنْ يُزيلُوا غَضَبَ رَبِّهم، ويَرجِعوا إلى ما يُرضِيه؛ مِن الاستِعتابِ: وهو الرُّجوعُ عَن الإساءَةِ، والتَّعرُّضُ لطَلَبِ الرِّضا، وأصلُ الكَلِمةِ مِن (العَتْبِ): وهو الغَضَب والمَلامةُ، يُقالُ: عتَبَ عليه يَعتِبُ: إذا غَضِبَ عليه ولامَه، وأعتَبَه: إذا أزالَ عنه عَتْبَه، واستَعْتَبَه: إذا طلَبَ منه الإعتابَ، أي: الرِّضا.

تَفسيرُ الآياتِ:

وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ (31).

أي: وأمَّا الذين كَفَروا باللهِ فيَقولُ اللهُ تعالَى لهم تَقْريعًا وتوبيخًا: ألَمْ تكُنْ آياتُ القرآنِ تُتلَى عليكم في الدُّنيا، فاستكبَرْتُم عن الإيمانِ بها واتِّباعِها، وأعرَضتُم عن سَماعِها وقَبولِها، وكنتُم قومًا مُتَّصِفينَ بالإجرامِ في أفعالِكم، فتَكتَسِبونَ الآثامَ، معَ ما اشتَمَلت عليه قلوبُكم مِن التَّكذيبِ؟!

وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (32).

وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ.

أي: وإذا قيلَ لكم: إنَّ ما وَعَد اللهُ به عِبادَه مِن البَعثِ أو غيرِه أمرٌ كائِنٌ لا مَحالةَ، وإنَّ القِيامةَ التي يَجمَعُ اللهُ فيها النَّاسَ للحِسابِ والجَزاءِ لا شكَّ في مَجيئِها؛ قُلتُم تَكذيبًا وإنكارًا: لا نَعرِفُ ما القِيامةُ!

إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا.

أي: وقُلتُم: ما نَعلَمُ وُقوعَ السَّاعةِ إلَّا على وَجهِ الظَّنِّ والتَّوَهُّمِ!

وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ.

أي: وما نحن بمُتَحقِّقينَ أنَّ القِيامةَ كائنةٌ!

وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (33).

وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا.

أي: وظهَر للمُشرِكِينَ في الآخِرةِ ظهورًا بيّنًا سَيِّئاتُ ما عَمِلوه في الدُّنيا مِنَ الكُفرِ والمعاصي.

وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ.

أي: ونزَل وأحاطَ بهم عَذابُ اللهِ الَّذي كانوا في الدُّنيا يَسخَرونَ منه، ويَستَهزِئونَ به.

وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (34).

وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا.

أي: ويُقالُ لهم: اليومَ نَترُكُكم في العَذابِ كما ترَكتُم في الدُّنيا الإيمانَ والعَمَلَ الصَّالِحَ لِلِقاءِ هذا اليَومِ.

كما قال تعالَى: فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [السجدة: 14].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ – ﷺ – قال: ((يَلقَى اللهُ العَبدَ فيقولُ: أيْ فُلُ،[26] ألَمْ أُكرِمْك وأُسَوِّدْك[27] وأُزَوِّجْك، وأُسخِّرْ لك الخيلَ والإبِلَ، وأذَرْك ترأَسُ وتَربَعُ؟[28] فيقولُ: بلى. فيقولُ: أفظَنَنْتَ أنَّك مُلاقِيَّ؟ فيقولُ: لا. فيقولُ: فإنِّي أنْساك كما نَسيتَني. ثمَّ يَلْقَى الثَّانيَ فيَقولُ: أيْ فُلُ، ألَمْ أُكرِمْك وأُسَوِّدْك وأُزَوِّجْك، وأُسخِّرْ لك الخيلَ والإبِلَ، وأذَرْك تَرأَسُ وتَربَعُ؟ فيقولُ: بلى أيْ رَبِّ. فيقولُ: أفظَنَنْتَ أنَّك مُلاقِيَّ؟ فيقولُ: لا. فيقولُ: فإنِّي أنساك كما نَسيتَني)).[29]

وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ.

أي: ومَقَرُّكم ومَسكَنُكم النَّارُ، تَستقِرُّون فيها أبدًا.

(26) أي فُلُ: أي: يا فُلانُ، و(فُلُ) هو تَرخيمُ فُلانٍ.
وقيل: لغةٌ في فُلانٍ، وصِيغةٌ ارتُجِلَت في بابِ النِّداءِ.
يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (923/3)، ((شرح النووي على مسلم)) (103/18).
(27) أُسَوِّدْك: أي: أجعَلْك سَيِّدًا في قومِك.
يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (3528/8).
(28) ترأَسُ: أي: تكونُ رئيسًا على قَومِك.
وتَربَعُ: أي: تأخُذُ المِرباعَ، وهو ربُعُ الغَنيمةِ، وقيل: معناه: ترَكْتُك مُستريحًا لا تحتاجُ إلى مَشقَّةٍ وتَعَبٍ؛ من قَولِهم: ارْبَعْ على نَفْسِك، أي: ارْفُقْ بها.
والمعنى: ألَمْ أجعَلْك رئيسًا مُطاعًا.
يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (186/2)، ((شرح النووي على مسلم)) (104/18).
(29) رواه مسلم (2968).

وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ.

أي: وما لكم -أيُّها المُشرِكونَ- أيُّ أحدٍ يَنصُرُكم فيُنقِذُكم مِن عَذابِ اللهِ تعالَى.

كما قال تعالَى: فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ [آل عمران: 56].

ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (35).

ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا.

أي: ذلك يَحُلُّ بكم؛ بسَبَبِ أنَّكم اتَّخَذْتُم آياتِ اللهِ سُخريةً، تَسخَرونَ منها، وتَستَهزِئونَ بها.

وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا.

أي: وبسَبَبِ انخِداعِكم بالحياةِ الدُّنيا، فعَمِلتُم لها وآثَرْتُموها، وأعرَضتُم عن العَمَلِ للآخِرةِ وأنكَرْتُموها!

فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا.

أي: فاليومَ لا يُخرَجُ أولئك الكافِرونَ مِنَ النَّارِ.

وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ.

أي: ولا يُطلَبُ منهم يومَ القِيامةِ فِعلُ ما يُرضِي اللهَ، بالتَّوبةِ إليه وطاعتِه؛ حتى تُزالَ عنهم المُعاتَبةُ والمُؤاخَذةُ بذُنوبِهم.

كما قال تعالَى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الروم: 57].

سُورةُ الجاثيةِ

الآيتان (36–37)

فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (36) وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (37)

غَريبُ الكَلِماتِ:

الْكِبْرِيَاءُ: أي العَظَمةُ والسُّلطانُ والمُلْكُ، وأصلُ (كبر): يدُلُّ على خِلافِ الصِّغَرِ.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (36).

فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ.

أي: فلِلَّهِ وَحْدَه الثَّناءُ الكامِلُ على ما يتَّصِفُ به مِن صِفاتِ الكَمالِ؛ محبَّةً له وتعظيمًا؛ خالِقِ السَّمَواتِ والأرضِ، ومالِكِهما، ومُدَبِّرِ أَمْرِهما.

رَبِّ الْعَالَمِينَ.

أي: خالِقِ جميعِ الخلائِقِ، ومالِكِهم ورازِقِهم، ومُدَبِّرِ شُؤونِهم.

وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (37).

وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.

أي: ولله وَحْدَه العَظَمةُ والجَلالُ والسُّلطانُ في السَّمَواتِ والأرضِ، الذي يَجِبُ على جميعِ خَلْقِه تكبيرُه وتَعظيمُه، والخُضوعُ والذُّلُّ له.

عن أبي سَعيدٍ الخُدْريّ وأبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قالا: قال رَسولُ اللهِ - ﷺ -: ((العِزُّ إزارُه، والكِبرياءُ رِداؤُه، فمَن يُنازِعُني عَذَّبتُه)).[30]

---

(30) رواه مسلم (2620).

وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ.

أي: واللهُ هو القاهِرُ الغالِبُ الَّذي لا يَغلِبُه ولا يَقهَرُه شَيءٌ سُبحانَه، وهو الحَكيمُ فيما خَلَق وشَرَع وقَدَّر؛ فلا يَضَعُ شَيئًا إلَّا في مَوضِعِه اللَّائِقِ به.

تَفْسِيرُ
سُورَةِ الأحقافِ

سُورةُ الأحقافِ

سُورةُ الأحقافِ

سُمِّيت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الأحقافِ)،[31] يدُلُّ على ذلك:

ما ورد عنِ ابنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((أقرَأَني رَسولُ اللهِ - ﷺ - سُورةَ الأحقافِ...)).[32]

وفي روايةٍ قال: ((أقرَأَني رَسولُ الله - ﷺ - سورةً مِن الثَّلاثينَ مِن آلِ حم، قال: يعني الأحقافَ. قال: وكانت السُّورةُ إذا كانت أكثَرَ مِن ثلاثينَ آيةً سُمِّيَت الثَّلاثينَ)).[33]

---

(31) سُمِّيَت سُورةَ الأحقافِ؛ لِقَولِه تعالى فيها: إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ [الأحقاف: 21] ، ووُرودِ لَفظِ (الأحقافِ) فيها، ولم يَرِدْ في غَيرِها مِن سُوَرِ القُرآنِ الكريمِ.

يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (428/1)، ((تفسير ابن عاشور)) (5/26).

(32) أخرجه مِن طُرُقٍ: أحمدُ (4322) واللَّفظُ له، والطَّبَرانيُّ في ((المعجم الأوسط)) (3418)، والحاكمُ (2885) كلاهما بلفظ: حم بدلًا من ((الأحقاف)).

صحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (155/6)، وصحَّح الحديثَ شعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((مسند أحمد)) (345/7).

والحديث أخرجه ابنُ حِبَّانَ في ((صحيحه)) (747) بلفظ: ((سورة الرَّحمن)) بدلًا من ((سورة الأحقاف))، وحسَّن إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((صحيح ابن حبان)) (23/3).

(33) أخرجه أحمدُ (3981) مطوَّلًا.

سورةُ (الأحقافِ) مَكِّيَّةٌ،[34] ونَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن المُفسِّرينَ.[35]

مِن أهمِّ مَقاصِدِ سُورةِ (الأحقافِ):

1- إقامةُ الأدِلَّةِ على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى، وكَمالِ قُدرتِه.

2- تقريرُ أنَّ هذا القُرآنَ مِن عندِ اللهِ تعالى، وأنَّ يومَ القيامةِ حَقٌّ.

مِن أهَمِّ المَوضوعاتِ الَّتي اشتَمَلت عليها هذه السُّورةُ الكريمةُ:

1- الثَّناءُ على القُرآنِ الكريمِ.

2- بَيانُ جانِبٍ مِن مَظاهِرِ قُدرةِ اللهِ تعالى.

3- الرَّدُّ على المُشرِكينَ، وإبطالُ استِحقاقِ مَعبوداتِهم لأيِّ لَونٍ مِن ألوانِ العِبادةِ.

ذكر الهَيْثَميُّ في ((مجمع الزوائد)) (108/7) أنَّه رُوِيَ بإسنادَينِ رِجالُ أحَدِهما ثِقاتٌ، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (35/6)، وحسَّن إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((مسند أحمد)) (88/7).

(34) وقيلَ: هي مَكِّيَّةٌ إلَّا قولَه تعالى: قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ [الأحقاف: 10]، وقَولَه تعالى: فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ [الأحقاف: 35]؛ فمَدَنيَّانِ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (111/21)، ((الوسيط)) للواحدي (102/4)، ((تفسير الزمخشري)) (294/4)، ((تفسير ابن عطية)) (80/5).

(35) ممَّن نَقَل الإجماعَ على ذلك: الماوَرْدي، والقرطبي، والفيروزابادي.

يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (270/5)، ((تفسير القرطبي)) (178/16)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (428/1).

ال ابنُ عطية (٧/ ٦٠٨): «هذه السورة مكية لم يُختلف منها إلا في آيتين، وهي قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ [١٠]، وقوله: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ الآية [٣٥]، فقال بعض المفسرين: هاتان آيتان مدنيتان وُضعتا في سورة مكية».

4- الحديثُ عن حُسنِ عاقِبةِ الَّذين قالوا رَبُّنا اللهُ ثمَّ استقاموا.

5- الحديثُ عن الوصايا الحكيمةِ الَّتي أوصى اللهُ بها الأبناءَ نحوَ آبائِهم، وعن حُسنِ عاقِبةِ الَّذين يَعملونَ بتلك الوَصايا.

6- بَيانُ سُوءِ عاقِبةِ الكافِرينَ الَّذين أعرَضوا عن دَعوةِ الحَقِّ.

7- تحذيرُ المُشرِكينَ مِن الإصرارِ على شِرْكِهم، وتذكيرُهم بما حَلَّ بالمُشرِكينَ مِن قَبْلِهم؛ كقَومِ عادٍ وثَمودَ.

8- تَسليةُ الرَّسولِ - ﷺ - بتذكيرِه بحُضورِ نَفَرٍ مِن الجِنِّ إليه للاستِماعِ إلى القُرآنِ الكريمِ، وإنصاتِهم له، ودَعوتِهم قَومَهم إلى الإيمانِ بالحَقِّ الَّذي استَمَعوا إليه، وبالنَّبيِّ الَّذي جاء به.

9- خُتِمَت السُّورةُ الكريمةُ بأمرِ النَّبيِّ - ﷺ - بالصَّبرِ على أذَى قَومِه، وعَدَمِ الاستِعجالِ لهم بالعَذابِ.

سُورةُ الأحقافِ

الآيات (1–3)

حم (1) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (2) مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ (3)

غريب الكلمات:

وَأَجَلٍ مُسَمًّى: أي: وقتٍ مُعَيَّنٍ محدَّدٍ، وأصلُ الأجَلِ: غايةُ الوَقتِ، والمُدَّةُ المضروبةُ للشَّيءِ، والمُسَمَّى: المُثبَتُ المُعَيَّنُ.

تفسير الآيات:

حم (1).

تقدَّم الكلامُ عن هذه الحروفِ المُقطَّعةِ في تفسيرِ أوَّلِ سُورةِ الجاثيةِ.

تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (2).

أي: تنزيلُ القُرآنِ مِن عندِ اللهِ القاهِرِ الغالِبِ، المُمتنِعِ عن كُلِّ عَيبٍ ونَقصٍ، الحكيمِ الَّذي يضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به.

كما قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ [فصلت: 41، 42].

مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ (3).

مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى.

أي: ما خلَقْنا السَّمواتِ والأرضَ وما بيْنَهما مِنَ الخَلقِ إلَّا بالعَدلِ والحِكمةِ، وبمُدَّةٍ مُعَيَّنةٍ مَضروبةٍ بلا زيادةٍ ولا نَقصٍ، فتَنتَهي إليه وتَفنَى فيه، وهو يومُ القيامةِ.

كما قال تعالى: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ [ص: 27].

وقال سُبحانَه: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ [الدخان: 38، 39].

وقال جلَّ ثناؤه: أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ [الروم: 8].

وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ.

أي: والَّذين كَفَروا بالحَقِّ مُعرِضونَ عَمَّا خُوِّفوا به في القُرآنِ وحُذِّروا.

كما قال تعالى: اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ * مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ [الأنبياء: 1-3].

وقال سُبحانَه: قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ * أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ [ص: 67، 68].

سُورةُ الأحقافِ

الآيات (4-6)

قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (4) وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (5) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (6)

غريب الكلمات:

شِرْكٌ: أي: نَصيبٌ وشَرِكةٌ، وأصلُ (شرك): يدُلُّ على مُقارَنةٍ.

أَثَارَةٍ: أي: بقيَّةٍ أو عَلامةٍ أو شَيءٍ مأثورٍ مِن كُتُبِ الأوَّلينَ، واشتِقاقُه مِن: أثَرْتُ الشَّيءَ أُثِيرُه إثارةً، كأنَّها بَقيَّةٌ تُستخرَجُ فتُثارُ، أو مِن الأثَرِ الَّذي هو الرِّوايةُ أو العَلامةُ.

تفسير الآيات:

قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (4).

قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ.

أي: قُلْ –يا محمَّدُ– للمُشرِكِينَ مِن قَومِك: أرأيتُمُ الَّذين تَدْعونَهم مِن دونِ اللهِ مِن مَعبوداتِكم، أَروني ماذا خَلَقوا مِن الأرضِ فاستَحَقُّوا بذلك عِبادتَكم لهم؟!

كما قال الله تعالى: قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ [فاطر: 40].

وقال الله سُبحانَه: هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ [لقمان: 11].

أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ.

أي: أمْ لتلك الآلهةِ المَزعومةِ نَصيبٌ مع اللهِ تعالى في السَّمواتِ؛ خَلقًا أو مِلكًا أو تدبيرًا؛ فيَكونَ لكم بذلك حُجَّةٌ على عبادتِكم لها؟!

كما قال الله سُبحانَه وتعالى: قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ [سبأ: 22].

ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا.

أي: أَحْضِروا لي كتابًا ممَّا أنزلَه اللهُ على الأنبياءِ مِن قَبلِ هذا القُرآنِ، يُخبِرُ بأنَّ آلهتَكم مُستحِقَّةٌ للعبادةِ![36]

---

(36) اختُلِف في المراد بقوله: ﴿أثارة من علم﴾ على أقوال: الأول: الخطّ، ويتضمّن أمرين: حُسن الكتابة، والقيافة في الأرض.

الثاني: خاصّة من علم.

الثالث: علم تثيرونه فتستخرجونه.

الرابع: تأثرون ذلك عِلمًا عن أحد ممن قبلكم.

الخامس: بيّنة من الأمر.

السادس: الإسناد.

السابع: بقيّة من عِلم.

ورجَّح ابنُ جرير (٢١/ ١١٥ – ١١٦) –مستندًا إلى اللغة– القول الأخير الذي قاله ابن عباس، ومجاهد، والكلبي، وابن عياش، فقال: «لأن ذلك هو المعروف من كلام العرب، وهي مصدر من قول القائل: أثُر الشيء أثارة، مثل سمُج سماجة».

ثم قال: «وإذا وُجِّه ذلك إلى ما قلنا فيه مِن أنه بقيّة من عِلم؛ جاز أن تكون تلك البقيّة من عِلم الخطّ، ومِن علمٍ استُثير من كتب الأولين، ومن خاصة علم كانوا أُوثروا به».

وذكر ابنُ كثير (١٣/ ٧ – ٨) أنّ الأثارة هي الدليل البيّن، ثم قال: «وكل هذه الأقوال متقاربة المعنى، وهي راجعة إلى ما قلنا».

ونسب هذا الترجيح لابن جرير.

وجمع ابنُ تيمية (٥/ ٥٤٧) بين تفسير الأثارة بالإسناد والخطّ بقوله: «والأثارة كما قال مَن قال مِن السلف: هي الرواية والإسناد.

وقالوا: هي الخطّ أيضًا.

إذ الرواية والإسناد يُكتب بالخطّ؛ وذلك لأنّ الأثارة من الأثر، فالعلم الذي يقوله مَن يُقبل قوله يؤثر بالإسناد، ويُقيّد بالخط؛ فيكون كل ذلك من آثاره».

كما قال تعالى: قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ [فاطر: 40].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ [الزخرف: 21].

أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ.

أي: أو هاتوا دَليلًا مِن بقيَّةِ عِلمٍ مأثورٍ عن السَّابِقينَ يدُلُّ على صِحَّةِ عِبادتِكم آلهتَكم، إنْ كنتُم صادِقينَ في دعواكم أنَّ لله تعالى شَريكًا!

وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (5).

وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

أي: لا أحَدَ أشَدُّ ضَلالًا مِن عَبدٍ يدعو مِنْ دونِ اللهِ آلِهةً لا تُجيبُ دُعاءَه أبدًا إلى يومِ القيامةِ.

وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ.

أي: وآلهتُهم في غَفلةٍ عن دُعائِهم، فلا يَعلَمونَ مَن يَدْعونَهم، ولا يَسمَعونَهم.

كما قال تعالى:... وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ * إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ [فاطر: 13، 14].

وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (6).

وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً.

أي: وإذا جَمَعَ اللهُ النَّاسَ يومَ القيامةِ للحِسابِ، كانت هذه الآلِهةُ الَّتي يَدْعوها المُشرِكونَ أعداءً لهم.

كما قال تعالى: وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ [العنكبوت: 25].

وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ.

أي: وكانت آلِهتُهم في الآخِرةِ جاحِدةً مُنكِرةً لِعبادةِ المُشرِكينَ لها في الدُّنيا!

كما قال الله تعالى: وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا [مريم: 81، 82].

وقال سُبحانَه: قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ * وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ [القصص: 63، 64].

وقال تعالى: وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ * فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ * هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ [يونس: 28 – 30].

سُورةُ الأحقافِ

الآيتان (7–8)

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (7) أَمْ
يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ
شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (8)

غريب الكلمات:

افْتَرَاهُ: أي: اختَلَقَه وافتَعَلَه، وجاء به مِن عندِ نَفْسِه. والافتِراءُ: اختِلاقُ الكَذِبِ، وأصلُه: مِنْ فَرْيِ الأديمِ، وهو: قَطْعُه، فقيل للكَذِبِ: افتِراءٌ؛ لأنَّ الكاذِبَ يَقطَعُ به على التَّقديرِ مِن غيرِ تحقيقٍ.

تُفِيضُونَ: أي: تَقولونَ وتَخوضونَ، والإفاضةُ في الحَديثِ: الخَوضُ فيه والإكثارُ منه، وهي منقولةٌ مِن: فاضَ الماءُ: إذا سالَ، ومنه: حديثٌ مُستَفيضٌ: مُشتَهِرٌ شائعٌ، وأصلُ (فيض): يدُلُّ على جَرَيانِ الشَّيءِ بسُهولةٍ.

تفسير الآيتين:

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (7).

أي: وإذا تُتلَى على المُشرِكينَ آياتُ القُرآنِ الواضِحاتُ، قال هؤلاء الَّذين كَفَروا بوَحدانيَّةِ الله للحَقِّ حينَ جاءَهم مِن عندِ اللهِ تعالى: هذا القُرآنُ سِحرٌ واضِحٌ!

كما قال تعالى: وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ [سبأ: 43].

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (8).

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ.

أي: أم يقولُ المُشرِكونَ: اختَلَق مُحَمَّدٌ القُرآنَ مِن تِلْقاءِ نَفْسِه، ونَسَبه إلى اللهِ كَذِبًا؟!

كما قال تعالى: أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ [هود: 13].

وقال سُبحانَه: أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ [يونس: 38].

قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا.

أي: قُلْ –يا مُحمَّدُ– لِمُشركي قَومِك: إنِ اختلَقْتُ القُرآنَ –كما تَزعُمونَ– فلا تَستطيعونَ أن تَدفَعوا عنِّي شيئًا مِن عذابِ اللهِ إن عاقَبَني؛ جزاءَ كَذِبي عليه!

كما قال تعالى: قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ [هود: 35].

وقال سُبحانَه: تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ [الحاقة: 43 – 47].

وقال عزَّ وجلَّ: قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا * قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا [الجن: 21، 22].

هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ.

أي: اللهُ أعلَمُ مِن كُلِّ أحَدٍ سِواه بما تَقولونَه في القُرآنِ؛ مِن طَعنٍ فيه، أو تَكذيبٍ به، أو وَصفِه بما لا يَليقُ.(37)

(37) ذكر ابنُ عطية (٧/ ٦١٢) أنّ الضمير في قوله: ﴿فيه﴾ يحتمل احتمالين: الأول: أن يعود على القرآن. الثاني: أن يعود على ﴿ما﴾.

كما قال تعالى: وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ [يونس: 61].

كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ.

أي: كفى باللهِ العالِمِ بحالي وحالِكم شاهِدًا يَحكُمُ بشَهادتِه بيْني وبيْنَكم، ويُجازي كُلًّا بما يَستحِقُّه.

وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ.

أي: واللهُ هو الَّذي مِن شأنِه أن يَستُرَ ذُنوبَ عِبادِه، ويَتجاوَزَ عن مُؤاخَذتِهم بها، ويَرحَمَهم.

سُورةُ الأحقافِ

الآيتان (9–10)

قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (9) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (10)

غريب الكلمات:

بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ: أي: أوَّلَ رُسُلِ اللهِ، والبِدْعُ مِن كُلِّ شَيءٍ: الأوَّلُ والمُبتَدأُ، والبِدعةُ: ما اختُرِعَ ممَّا لم تَجْرِ به سُنَّةٌ، وأصلُ (بدع): يدُلُّ على ابتداءِ الشَّيءِ، وصُنعِه لا عن مِثالٍ.

نَذِيرٌ: أي: مُنْذِرٌ ومُحذِّرٌ ومُخوِّفٌ، والإنذارُ: إخبارٌ فيه تخويفٌ، وأصلُ (نذر): يدُلُّ على تخويفٍ. وقيل: أصلُ الإنذارِ: الإعلامُ؛ يُقالُ: أنذَرْتُه: إذا أعلَمْتَه. وقيل: ولا يكونُ إلَّا معَ الحَذَرِ.

تفسير الآيتين:

قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (9).

قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ.

أي: قُلْ –يا محمَّدُ– لِمُشرِكي قَومِك: ما كنتُ أوَّلَ رُسُلِ اللهِ إلى البَشَرِ؛ فقد أرسَلَ اللهُ مِنْ قَبْلي كثيرًا مِنَ الرُّسُلِ إلى أُمَمِهم، وبِمِثْلِ ما أرسَلَني به، فلِمَ تَستَنكِرونَ رِسالتي؟!

قال تعالى: وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ [آل عمران: 144].

وقال سُبحانَه: إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا * وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا [النساء: 163، 164].

وَمَا أَدْرِي مَا يُفعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ.

أي: لَسْتُ إلَّا بشَرًا، وليس بيَدي مِنَ الأمرِ شَيءٌ؛ فلا أعلَمُ ما يَفعَلُه اللهُ بي، ولا ما يَفعَلُه بكم!(38)

كما قال تعالى: قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ [الأعراف: 188].

---

(38) اختُلف في قوله: ﴿ما أدْري ما يُفْعَلُ بِي ولا بِكُمْ﴾ على أقوال: الأول: أن المعنى: في الآخرة، وكان هذا في صدر الإسلام، ثم بعد ذلك عرّفه الله تعالى بأنه قد غفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر، وبأن المؤمنين لهم من الله فضل كبير وهو الجنة، وبأن الكافرين في نار جهنم.

الثاني: أنه – ﷺ – أُمر أن يقول هذا في أمرٍ كان ينتظره مِن الله في غير الثواب والعقاب.

الثالث: أن معنى الآية: لا أدري ما أؤمر به، ولا ما تؤمرون به.

الرابع: أن المعنى: ما أدري ما يُفعل بي ولا بكم في الدنيا مِن أن أُنصر عليكم أو من أن تُمكّنوا مني.

ورجَّح ابن جرير (٢١/ ١٢٣ – ١٢٤) –مستندًا إلى السياق– القولَ الأخير الذي قاله الحسن من طريق أبي بكر الهذلي.

وانتقد –مستندًا لمخالفته الدلالة العقلية– القول الأول، فقال: «لأن الخطاب من مبتدأ هذه السورة إلى هذه الآية، والخبر خرج من الله – عز وجل – خطابًا للمشركين، وخبرًا عنهم، وتوبيخًا لهم، واحتجاجًا من الله –تعالى ذكره– لنبيّه – ﷺ –؛ فإذا كان ذلك كذلك فمعلوم أن هذه الآية أيضًا سبيلها سبيل ما قبلها وما بعدها في أنها احتجاج عليهم، وتوبيخ لهم، أو خبر عنهم.

وإذا كان ذلك كذلك فمحال أن يقال للنبي – ﷺ –: قل للمشركين: ما أدري ما يُفعل بي ولا بكم في الآخرة.

وآيات كتاب الله – عز وجل – في تنزيله ووحيه إليه متتابعة بأن المشركين في النار مُخلّدون، والمؤمنون به في الجنان مُنعَّمون، وبذلك يُرهبهم مرة، ويرغّبهم أخرى، ولو قال لهم ذلك لقالوا له: فعلامَ نتبّعك إذن وأنت لا تدري إلى أيّ حال تصير غدًا في القيامة؛ إلى خفْض ودَعة، أم إلى شدّة وعذاب! وإنما اتّباعنا إياك إن اتبعناك، وتصديقنا بما تدعونا إليه، رغبة في نعمة، وكرامة نصيبها، أو رهبة من عقوبة، وعذاب نهرب منه».

وعلَّق ابنُ كثير (١٣/ ٩) على القول الأخير بقوله: «هذا القول هو الذي عوّل عليه ابن جرير، وأنه لا يجوز غيره، ولا شكّ أن هذا هو اللائق به – ﷺ –؛ فإنه بالنسبة إلى الآخرة جازم أنه يصير إلى الجنة هو ومن اتّبعه، وأما في الدنيا فلم يدرِ ما كان يؤول إليه أمره وأمر مشركي قريش إلى ماذا: أيؤمنون أم يكفرون، فيُعذَّبون فيُستَأصلون بكفرهم؟».

وعن أمِّ العَلاءِ رضيَ اللهُ عنها، قالت: ((دخَلَ علينا رَسولُ اللهِ - ﷺ - حينَ تُوُفِّيَ عُثمانُ بنُ مَظْعُونٍ، فقُلتُ: رَحمةُ اللهِ عليك أبا السَّائِبِ، فشَهادتي عليك لقد أكرَمَك اللهُ! فقال لي النَّبيُّ - ﷺ -: وما يُدريكِ أنَّ اللهَ أكرَمَه؟! فقُلتُ: لا أدري، بأبي أنتَ وأمِّي يا رَسولَ اللهِ! فقال رَسولُ اللهِ - ﷺ -: أمَّا عُثمانُ فقد جاءه -واللهِ- اليَقينُ، وإنِّي لأرجو له الخَيرَ، واللهِ ما أدري وأنا رَسولُ اللهِ ما يُفعَلُ به![39] قالت: فواللهِ لا أُزكِّي أحدًا بعدَه أبدًا، وأحزَنَني ذلك. قالت: فنِمتُ، فأُرِيتُ لِعُثمانَ عَينًا تَجري، فجِئتُ إلى رَسولِ اللهِ - ﷺ -، فأخبَرْتُه، فقال: ذاك عَمَلُه)).[40]

وفي روايةٍ: ((واللهِ ما أدري -وأنا رَسولُ اللهِ- ما يُفعَلُ بي ولا بكم)).[41]

(39) قال ابن كثير: (وفي هذا وأمثالِه دَلالةٌ على أنَّه لا يُقطَعُ لِمُعَيَّنٍ بالجنَّةِ إلَّا الَّذي نصَّ الشَّارِعُ على تَعْيينِهم؛ كالعَشَرةِ، وابنِ سلَامٍ، والغُمَيْصاءِ، وبِلالٍ، وسُراقَةَ، وعبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ حَرامٍ والدِ جابرٍ، والقُرَّاءِ السَّبعينَ الَّذينَ قُتِلوا ببِئْرِ مَعُونةَ، وزَيدِ بنِ حارِثةَ، وجَعْفَرٍ، وابنِ رَواحةَ، وما أشبهَ هؤُلاءِ).

((تفسير ابن كثير)) (277/7).

(40) أخرجه البخاري (2687).

(41) أخرجه البخاري (7018).

قال ابن حجر: (إنَّما قال رسولُ الله - ﷺ - ذلك موافقةً لِقَولِه تعالى في سورةِ الأحقافِ: قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ، وكان ذلك قبْلَ نُزولِ قَولِه تعالى: لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ [الفتح: 2] ؛ لأنَّ الأحقافَ مكِّيَّةٌ، وسورةَ الفتحِ مدنيَّةٌ بلا خِلافٍ فيهما، وقد ثبت أنَّه - ﷺ - قال: «أنا أوَّلُ مَن يدخُلُ الجنَّةَ»، وغير ذلك مِن الأخبارِ الصَّريحةِ في معناه، فيحتملُ أن يُحمَلَ الإثباتُ في ذلك على العِلمِ المُجمَلِ، والنَّفيُ على الإحاطةِ مِن حيثُ التَّفصيلُ).

((فتح الباري)) (115/3).

إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ.

أي: ما أتَّبعُ إلَّا ما يُنزِلُه اللهُ علَيَّ مِنَ الوَحيِ.

وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ.

أي: وما أنا لكم إلَّا نَذيرٌ أُبِينُ وأُظهِرُ لكم الإنذارَ مِن عذابِ اللهِ، وأمري بائنٌ ظاهِرٌ لكُلِّ ذي عَقلٍ.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (10).

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لِمُشرِكي قَومِك: أرأيتُم إن كان هذا القُرآنُ نازِلًا إلَيَّ مِن عندِ اللهِ، ومع ذلك كفَرْتُم به، ألَا تَكونونَ بذلك ظالِمينَ وضالِّينَ عن الحَقِّ؟

كما قال تعالى: قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ [فصلت: 52].

وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ.

أي: وقد شَهِد مَنْ شَهِدَ مِنْ بني إسرائيلَ[42] على مِثلِ القُرآنِ أنَّه مِن عندِ الله؛ فآمَنَ هو بالقُرآنِ، واستَكبرتُم أنتم –أيُّها المُشرِكونَ– عن الإيمانِ به!

---

(42) اختُلف في المراد بالشاهد، وبحسب هذا اختُلف في مكية السورة ومدنيتها على أقوال: الأول: أنّ الآية مدنية، والشاهد عبد الله بن سلام.

وقوله: ﴿عَلَى مِثْلِهِ﴾ الضمير فيه عائد على قول محمد – ﷺ – في القرآن: إنه من عند الله.

الثاني: أنه رجل من بني إسرائيل غير عبد الله بن سلام كان بمكة، والآية مكية.

الثالث: الآية مكية، والشاهد عبد الله بن سلام.

الرابع: أن الشاهد موسى بن عمران، والآية مكية.

وعلَّق ابنُ عطية (٧/ ٧١٥) على القول الأخير الذي قاله مسروق، والشعبي، بقوله: «قوله تعالى: ﴿على مثله﴾ يريد بالمثل: التوراة، والضمير عائد –على هذا التأويل– على القرآن، أي: جاء شاهدٌ مِن بني إسرائيل بمثله، وشهد أنّه مِن عند الله تعالى».

ورجّح ابنُ جرير (٢١/ ١٣١) أنّ الشاهدَ عبد الله بن سلام مستندًا إلى أقوال السلف، وأحوال النُّزول، كما قوّى القول الأخير من جهة السياق، فقال: «لأن قوله: ﴿قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله﴾ في سياق توبيخ الله –تعالى ذكره– مشركي قريش، واحتجاجًا عليهم لنبيّه – ﷺ –، وهذه الآية نظيرة سائر الآيات قبلها، ولم يجرِ لأهل الكتاب ولا لليهود قبل ذلك ذِكر فتوجّه هذه الآية إلى أنها فيهم نزلت، ولا دلّ على انصراف الكلام عن قصص الذين تقدم الخبر عنهم معنى».

ثم قال: «غير أنّ الأخبار قد وردت عن جماعة من أصحاب رسول الله – ﷺ – بأنّ ذلك عني به عبد الله بن سلام وعليه أكثر أهل التأويل، وهم كانوا أعلم بمعاني القرآن، والسبب الذي فيه نزل، وما أُريدَ به».

ورجّح ابنُ كثير (١٣/ ١١) –مستندًا إلى أحوال النزول والنظائر– أنّ الشاهد اسم جنس يعمّ عبد الله بن سلام وغيره، ثم قال: «فإنّ هذه الآية مكية نزلت قبل إسلام عبد الله بن سلام، وهذه كقوله: ﴿وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين﴾ [القصص: ٥٣]، وقال: ﴿إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا﴾ [الإسراء: ١٠٧ – ١٠٨]».

وساق ابنُ عطية (٥/ ٩٥ ط: دار الكتب العلمية) الأقوال، ثم علَّق بقوله: «قوله: ﴿فآمن﴾ –على هذا التأويل [يعني: قول مسروق]– يعني به: تصديق موسى بأمر محمد، وتبشيره به.

فذلك إيمان به، وأما مَن قال: الشاهد عبد الله بن سلام، فإيمان بيّن، وكذلك إيمان الإسرائيلي الذي كان بمكة في قول من قاله».

كما قال تعالى: وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ * أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ [الشعراء: 196، 197].

وقال سُبحانه: أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ [هود: 17].

وقال عزَّ وجلَّ: قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا [الإسراء: 107 – 109].

وقال تبارك وتعالى: الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ * أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ [القصص: 52 – 54].

ثم ذكر (٧/ ٦١٥) قولًا بأن الفاعل بـ «آمن» هو محمد – ﷺ –، وعلّق عليه بقوله: «وهذا من القائلين بأن الشاهد هو موسى بن عمران – عليه السلام –».

إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ.

أي: إنَّ اللهَ لا يُوَفِّقُ لإصابةِ الحَقِّ القَومَ الَّذين ظَلَموا أنفُسَهم بالكُفرِ باللهِ، والتَّكَبُّرِ عن قَبولِ الحَقِّ مع وُضوحِه.

كما قال تعالى: وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ [إبراهيم: 27].

سُورةُ الأحقافِ

الآيتان (11-12)

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا
إِفْكٌ قَدِيمٌ (11) وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا
لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ (12)

غريب الكلمات:

إِفْكٌ: أي: كَذِبٌ وبُهتانٌ، وقيل: الإفْكُ أسوأُ الكذبِ، وأصلُ (أفك): يدُلُّ على قَلبِ الشَّيءِ، وصَرفِه عن جِهتِه.

إِمَامًا: أي: يأتَمُّون به ويَقتَدون ويَهتَدُون، والإمامُ: كلُّ ما ائْتَمَمْتَ به؛ إنسانًا أو كتابًا أو غيرَ ذلك، مُحِقًّا كان أو مُبطِلًا، وجمْعُه: أئِمَّةٌ، وأصلُ (أمم): الأصلُ، والمرجِعُ، والجماعةُ، والدِّينُ.

وَبُشْرَى: البُشرَى والبِشارةُ: الإخبارُ بما يَسُرُّ، وأصلُ (بشر): ظهورُ الشَّيءِ معَ حُسنٍ وجمالٍ.

تفسير الآيتين:

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ (11).

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ.

أي: وقال كُفَّارُ قُرَيشٍ عن المُؤمنينَ بالقُرآنِ: لو كان هذا القُرآنُ خَيرًا ما سبَقَنا إلى الإيمانِ به واتِّباعِه هؤلاء المُستَضعَفونَ الفُقَراءُ الأذِلَّاءُ، ولَبادَرْنا إليه قَبْلَهم؛ فنحن أشرَفُ منهم وأعَزُّ، وأكثَرُ أموالًا وأولادًا!

كما قال تعالى: وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا [الأنعام: 53].

وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ.

أي: وحينَ لا يَهتدي المُشرِكونَ بالقُرآنِ فإنَّهم سيَقولونَ: هذا القُرآنُ الَّذي جاء به محمَّدٌ كَذِبٌ مِن أخبارِ الأقدَمينَ!

كما قال تعالى: وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا [الفرقان: 5].

وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ (12).

وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً.

أي: ومِن قَبْلِ هذا القُرآنِ التَّوراةُ الَّتي أُنزِلَت على موسى إمامًا لبني إسرائيلَ يأتَمُّونَ بما فيها، ورحمةً لهم في الدُّنيا والآخِرةِ إنِ اتَّبَعوها.

كما قال تعالى: أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ [هود: 17، 18].

وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا.

أي: وهذا القُرآنُ مُصَدِّقٌ للتَّوراةِ ولِكُتُبِ اللهِ السَّابقةِ، حالَ كَونِه لسانًا عربيًّا فَصيحًا واضحًا.

كما قال الله تعالى: وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ [المائدة: 48].

وقال سُبحانَه: بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ [الشعراء: 195].

لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا.

أي: لِيُخوِّفَ القُرآنُ الظالِمينَ، ويُحذِّرَهم مِن عذابِ اللهِ إنِ استمَرُّوا على ظُلمِهم.

كما قال تعالى: كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ [الأعراف: 2].

وقال سُبحانَه: لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ [الكهف: 2].

وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ.

أي: وهذا القُرآنُ بُشرَى بالخَيرِ في الدُّنيا والآخِرةِ للَّذين أحسَنوا في إيمانِهم وطاعتِهم لله.

كما قال الله تعالى: وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا [الكهف: 2].

سُورةُ الأحقافِ

الآيتان (13–14)

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (13) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (14)

تفسير الآيتين:

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (13).

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا.

أي: إنَّ الَّذين قالوا: ربُّنا اللهُ وَحْدَه، ثمَّ استقاموا على توحيدِ اللهِ، وامتِثالِ أوامِرِه واجتِنابِ نواهيه، وداوَموا على طاعتِه مُدَّةَ حَياتِهم بما شَرَع بلا مَيلٍ ولا اعوِجاجٍ، ولا إفراطٍ منهم ولا تَفريطٍ.[43]

عن سُفْيانَ بنِ عبدِ اللهِ الثَّقَفيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، قُلْ لي في الإسلامِ قَولًا لا أسألُ عنه أحدًا بَعْدَك. قال: قُلْ: آمَنْتُ باللهِ، فاستَقِمْ)).[44]

فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ.

أي: أولئك لا خَوفٌ عليهم مِن أيِّ شَرٍّ ومَكروهٍ في مُستَقبَلِ زَمانِهم.

وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ.

أي: ولا هم يَحزَنونَ على ما مضَى.

---

(43) ذكر ابنُ عطية (٧/ ٦١٦) أنّ كثيرًا مِن الناس ذهب إلى أن معنى الآية: ثم اسْتَقامُوا بالطاعات والأعمال الصالحات. وساق قول أبي بكر، ثم علَّق عليه بقوله: «وهذا القول أعمّ رجاءً وأوسع، وإن كان في الجملة المؤمنة مَن يُعذب وينفذ عليه الوعيد، فهو ممن يُخلّد في الجنة وينتفي عنه الخوف والحزن الحالّ بالكفرة».

(44) رواه مسلم (38).

أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (14).

أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا.

أي: أولئك هم أهلُ الجنَّةِ الملازِمونَ لها، المُختَصُّونَ بها، يمكُثون فيها أبدًا.

جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ.

أي: ثوابًا مِنَ اللهِ لهم؛ بسَبَبِ ما كانوا يعمَلونَه في الدُّنيا مِن الصَّالِحاتِ.

سُورةُ الأحقافِ

الآيتان (15–16)

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (15) أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (16)

غريب الكلمات:

كُرْهًا: أي: مَشقَّةً وتَعبًا، وأصلُ (كره): يدُلُّ على خِلافِ الرِّضا والمحَبَّةِ.

وَفِصَالُهُ: أي: فِطامُه، وأصلُ (فصل): يدُلُّ على تمييزِ الشَّيءِ مِن الشَّيءِ، وإبانتِه عنه؛ لانفِصالِ المولودِ عن الاغتِذاءِ بثَدْيِ أمِّه إلى غيرِه مِن الأقواتِ، ومنه سُمِّيَ الفَصِيلُ –ولَدُ النَّاقةِ– فَصِيلًا؛ لأنَّه مَفصُولٌ عن أمِّه.

بَلَغَ أَشُدَّهُ: أي: بلَغَ غايةَ شَبابِه وشِدَّتِه وقُوَّتِه، والأَشُدُّ قيل: هو جمعُ شَدٍّ، وقيل: جمعُ شِدَّةٍ، وقيل: هو جمْعٌ لا واحدَ له، وأصلُ (بلغ): يدُلُّ على الوُصولِ إلى شَيءٍ، وأصلُ (شدد): يدُلُّ على قُوَّةٍ في شَيءٍ.

أَوْزِعْنِي: أي: ألهِمْني، يُقالُ: أوزَعْتُه بكذا، أي: أغرَيْتُه به، وهو مُوزَعٌ بكذا، ومُولَعٌ بكذا، وأصلُ (أوزع): الدَّلالةُ على إزالةِ الوَزْعِ، أي: الانكِفافِ عن عَمَلٍ ما؛ فالهمزةُ فيه للإزالةِ.

ذُرِّيَّتِي: الذُّرِّيَّةُ: الأولادُ وأولادُ الأولادِ، فهي اسمٌ يَجمعُ نَسلَ الإنسانِ مِن ذَكَرٍ وأُنثَى، قيل: أصلُها مِن (ذرأ)، أي: خلَق، وحُذِفت الهمزةُ منها، وقيل: أصلُها مِن (الذَّرِّ)، بمعنَى التَّفريقِ.

تفسير الآيتين:

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (15).

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا.

أي: وأَمَرْنا الإنسانَ وعَهِدْنا إليه عَهدًا أن يُحسِنَ إلى والِدَيه ويَبَرَّهما.

كما قال تعالى: وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا [العنكبوت: 8].

حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا.

أي: حمَلَتْه أُمُّه في بَطنِها فقاسَت في ذلك مَشَقَّةً شَديدةً جعلَتْها كارِهةً لأحوالِ ذلك الحَملِ؛ مِنَ الثِّقلِ، والغَثَيانِ، والضَّعفِ، وغَيرِ ذلك.(45)

---

(45) اختُلف في قراءة قوله: ﴿كرها﴾؛ فقرأ قوم بضم الكاف، وقرأ غيرهم بفتحها.

وذكر ابنُ عطية (٧/ ٦١٨) أنهما بمعنى واحد.

ثم ساق هذا القول، ونقل أنّ فرقة قالت: الكُره –بالضم–: المشقّة.

والكَره –بالفتح–: هو الغلبة والقهر.

وذكر أنهم ضعّفوا –على هذا– قراءة الفتح، وأنهم قالوا: لو كان كَرهًا لرمت به عن نفسها؛ إذ الكَره: القهر والغلبة.

كما قال تعالى: وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ [لقمان: 14].

وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا.

أي: وتَضَعُ مَولودَها بآلامٍ شَديدةٍ ومَشَقَّةٍ عَظيمةٍ تَجعَلُها كارِهةً لِوَضعِه.

وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا.

أي: ومُدَّةُ حَمِلِ الجَنينِ في بَطنِ أمِّه مع مُدَّةِ فِطامِه مِن الرَّضاعِ تَبلُغُ ثلاثينَ شَهرًا.

حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ.

أي: حتَّى إذا بلغَ الوَلَدُ شِدَّةَ قُوَّتِه وكَمالَ عَقلِه، وذلك في سِنِّ الشَّبابِ.(46)

ثم رجَّح القول الأول، فقال: «والقول الذي قدّمناه أصوب».

ولم يذكر مستندًا.

(46) اختُلف في الأشدّ على أقوال: الأول: بلوغ الحلم.

الثاني: ثمانية عشر عامًا.

الثالث: ثلاثة وثلاثون عامًا.

ورجَّح ابنُ جرير (٢١/ ١٣٩ – ١٤٠) –مستندًا إلى اللغة– القول الأخير الذي قاله ابن عباس من طريق مجاهد، وقتادة.

وانتقد الأول الذي قاله الشعبي، وربيعة، ومالك، وزيد، فقال –بعد أن بيّن أن بلوغ الأشدّ هو موطن تناهي القوة والاستواء–:

«وإذا كان ذلك كذلك، كان الثلاث والثلاثون به أشبه من الحلُم؛ لأن المرء لا يبلغ في حال حلمه كمال قواه، ونهاية شدّته، فإن العرب إذا ذكرت مثل هذا من الكلام، فعطفت بعضًا على بعضٍ، جعلت كلا الوقتين قريبًا أحدهما من صاحبه، كما قال جلّ ثناؤه: ﴿إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه﴾ [المزمل: ٢٠].

ولا تكاد تقول: أنا أعلم أنك تقوم قريبًا من ساعة من الليل وكلّه، ولا أخذتَ قليلًا من مال أو كله.

ولكن تقول: أخذت عامّة مالي أو كله، فكذلك ذلك في قوله: ﴿حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة﴾.

وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً.

أي: وبلَغ أربعينَ سَنةً، فكَمَل حِينَها عَقلُه وقُوَّته، وتكامَلَت حُجَّةُ اللهِ عليه.

قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ.

أي: قال: رَبِّ أَلهِمْني ووفِّقْني[47] لِأن أشكُرَ ما أنعَمْتَ به علَيَّ، وعلى أبي وأُمِّي.

وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ.

أي: وألهِمْني ووَفِّقْني لِأنْ أعمَلَ عَمَلًا صالِحًا يُرضيك عنِّي، وتَقْبَلُه مِنِّي.

وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي.

لا شكّ أنّ نسق الأربعين على الثلاث والثلاثين أحسن وأشبه، إذ كان يراد بذلك تقريب أحدهما من الآخر، من النسق على الخمس عشرة أو الثمان عشرة».وذكر ابن عطية (٧/ ٦١٩) قولين آخرين: الأول: أنه أربعون عامًا.

وعلّق عليه بقوله: «ومَن قال بالأربعين قال: إنه في الآية أكّد وفسّر الأشُدّ بقوله سبحانه: ﴿وبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾».

الثاني: أن الأشُدّ ستة وثلاثين عامًا، ورجّحه بقوله: «وأقوى الأقوال ستة وثلاثون»، ولم يذكر مستندًا.

(47) ذكر ابنُ القيم (٢/ ٤٥٠) القول بأن معنى ﴿أوزعني﴾: ألْهِمني.

ثم نقل عن أبي إسحاق تفسيره بـ: كفّني عن الأشياء إلا نفس شكر نعمتك.

وعلَّق عليه بقوله: «ولهذا يقال في تفسير الموزع: المولع، ومنه الحديث: «كان رسول الله – ﷺ – مُوزعًا بالسؤال».

أي: مُولعًا به، كأنه كفّ ومُنع إلا منه.

ونقل عن أهل اللغة أن الوزع له معنيان: الأول: أنه بمعنى الكفّ.

وهو قول أبي إسحاق.

الثاني: الإغراء، فأوزعته بالشيء: أغريته به، واستوزعتُ الله شكره فأوزعني: استلهمتُه فألهمني.

ثم قال:» فقد دار معنى اللفظة على معنى: ألْهِمني ذلك، واجعلني مغرًى به، وكفّني عما سواه".

أي: وأصلِحْ لي نَسْلي وعَقِبي بأنْ تَهديَهم للإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ، وتُصلِحَ أحوالَهم.

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ - ﷺ - قال: ((ثلاثُ دَعَواتٍ مُستَجاباتٌ لا شَكَّ فيهنَّ: دعوةُ الوالِدِ، ودَعوةُ المُسافِرِ، ودَعوةُ المظلومِ)).[48]

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ الله - ﷺ - قال: ((إذا مات الإنسانُ انقطَع عنه عَمَلُه إلَّا مِن ثلاثةٍ: إلَّا مِن صَدَقةٍ جاريةٍ، أو عِلمٍ يُنتَفَعُ به، أو ولَدٍ صالحٍ يَدعو له)).[49]

إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ.

أي: إنِّي تُبتُ إليك مِن ذُنوبي السَّابِقةِ، ورَجعتُ إلى طاعتِك.

وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ.

أي: وإنِّي مِن المُستَسلِمينَ لك بالتَّوحيدِ، المُنقادينَ لحُكمِك، الخاضِعينَ لك بالطَّاعةِ في أمْرِك ونَهْيِك.

---

(48) أخرجه أبو داودَ (1536) واللَّفظُ له، والترمذيُّ (3448)، وابنُ ماجه (3862)، وأحمد (7510).
حسَّنه الترمذيُّ، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (1536)، وصَحَّحه ابن حِبَّان في ((الصحيح)) (2699)، والقرطبيُّ في ((التفسير)) (194/16)، والنوويُّ في ((الإيضاح)) (62)، وقوَّى إسنادَه الذهبيُّ في ((الكبائر)) (184)، وصَحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (252/13)، وحَسَّن الحديثَ لغيرِه شُعَيبٌ الأرناؤوط في تخريجِ ((سنن أبي داود)) (1536).
(49) رواه مسلم (1631).

أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (16).

أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا.

أي: أولئك يَتقبَّلُ اللهُ عنهم أحسَنَ الَّذي عَمِلوه في الدُّنيا؛ فيُثيبُهم عليه.

وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ.

أي: ويَصفَحُ اللهُ عن سَيِّئاتِ أعمالِهم؛ فلا يُعاقِبُهم عليها.

فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ.

أي: وهم في عِدادِ أهلِ الجنَّةِ، الَّذين يُفعَلُ بهم مِثلُ ذلك.

وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ.

أي: وَعَد اللهُ أهلَ الإيمانِ أن يَتقَبَّلَ مِن مُحسِنِهم ويَتجاوَزَ عن مُسيئِهم وَعْدَ الصِّدْقِ والحقِّ الَّذي لا يُخلَفُ، فهو موفٍ لهم به ولا شكَّ.

سُورةُ الأحقافِ

الآيات (17–20)

وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا
يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (17) أُولَئِكَ
الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ
(18) وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (19) وَيَوْمَ يُعْرَضُ
الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ
عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ (20)

غريب الكلمات:

أُفٍّ: الأُفُّ: الرَّديءُ مِن الكَلامِ، وكُلُّ ما غَلُظَ مِنه وقَبُحَ، وهو اسمُ فِعلٍ يُنبئُ عن التَّضَجُّرِ والاستِثقالِ، أو صَوتٌ يُنبئُ عن ذلك، وأصلُ (أفف): يدُلُّ على تَكَرُّهِ الشَّيءِ.

خَلَتِ: أي: مَضَتْ وذَهبَتْ، مِن خلا الزَّمانُ: إذا مَضَى وذهَبَ.

الْقُرُونُ: جمعُ قَرْنٍ، وهو: الأُمَّةُ مِنَ النَّاسِ، أو القَومُ المُقترِنونَ في زَمنٍ واحدٍ، غَيْر مُقَدَّرٍ بمدَّةٍ مُعيَّنةٍ، وقيل: مدَّةُ القرنِ مِئةُ سَنةٍ، وقيل: ثمانونَ، وقيل: ثلاثون، وقيل غيرُ ذلك، والاقترانُ هو اجتِماعُ شيئَينِ أو أشياءَ في معنًى مِن المعاني، وأصلُ (قرن): يدُلُّ على جَمعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ.

وَيْلَكَ: الويلُ: كلمةُ دُعاءٍ بالهلاكِ والعذابِ، وتُستعمَلُ أيضًا في التَّحسُّرِ، وقيل: هي وادٍ في جهنَّمَ، وأصْلُ الوَيلِ: الشَّرُّ وحُلولُه.

أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ: أي: أباطيلُهم وتُرَّهاتُهم، جمعُ أُسطورةٍ، وهي: ما سُطِرَ مِن أخبارِ الأوَّلين وكَذِبِهم، وأصلُ (سطر): يدُلُّ على اصطفافِ الشَّيءِ.

الْهُونِ: أي: الهَوانِ والذُّلِّ والخِزْيِ، وأصلُ (هون): يدُلُّ على ذُلٍّ.

تَفْسُقُونَ: أي: تَخرُجونَ عن الطَّاعةِ، وذلك مِن قولِهم: فسَقَ الرُّطَبُ، إذا خرجَ عَن قِشرِه، والفُسوقُ: خروجٌ مِن الطَّاعةِ إلى المعصيةِ، وخروجٌ مِن الإيمانِ إلى الكُفرِ.

تفسير الآيات:

وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (17).

وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا.

أي: والَّذي قال لِوالِدَيه إذْ دَعَواه إلى الإيمانِ باللهِ واليَومِ الآخِرِ، مُتَضَجِّرًا منهما: أُفٍّ لكما.

أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي.

أي: يَقولُ هذا العاقُّ لِوالِدَيه المؤمِنَينِ: أتَعِدانِني أن أُبعَثَ بعدَ مَوتي، فأُخرَجَ مِن قَبري حيًّا، والحالُ أنَّه قد مَضَت الأُمَمُ الأُولَى قبْلي، ولم يَرجِعْ منهم أحَدٌ بعدَ مَوتِه؟!

وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ.

أي: ووالِداه يَطلُبانِ مِن اللهِ أنْ يُغيثَهما بأن يَهديَ ابنَهما إلى الحَقِّ.

وَيْلَكَ آمِنْ.

أي: يقولانِ لِوَلدِهما الكافِرِ: وَيْلَك آمِنْ بما وَعَدَ اللهُ به عِبادَه مِن البَعثِ بعدَ الموتِ.

إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ.

أي: إنَّ ما وَعَد اللهُ به عِبادَه مِن البَعثِ بعدَ الموتِ للحِسابِ والجزاءِ صِدْقٌ لا شَكَّ فيه، ووَعدٌ لا خُلْفَ فيه.

فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ.

أي: فيَقولُ هذا المُكَذِّبُ بالبَعثِ لوالِدَيه: ما هذا الَّذي تَدْعُوانِني إلى الإيمانِ به إلَّا أحاديثُ الأقدَمينَ وقِصَصُهم الَّتي سطَّروها في كُتُبِهم، وهي خُرافاتٌ باطِلةٌ لا حقيقةَ لها!

أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (18).

أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ.

أي: أولئك العاقُّونَ المُكَذِّبونَ بالبَعثِ القائِلونَ تلك المقالاتِ: هم الَّذين وَجَب عليهم عذابُ اللهِ، وسبَق عليهم القضاءُ بذلك، كائِنينَ في جُملةِ مَن يُعَذِّبُهم مِنَ الأُمَمِ الكافِرةِ الَّتي مَضَت قَبْلَهم مِنَ الجِنِّ والإنسِ، فسيَدخُلُ أولئك في عِدادِهم.

كما قال تعالى: قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ [الأعراف: 38].

إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ.

أي: إنَّهم كانوا خاسِرينَ ببَيعِهم الهُدى بالضَّلالِ، والجنَّةَ بالنَّارِ، وخَسِروا أنفُسَهم وأهلِيهم يومَ القيامةِ.

كما قال تعالى: قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ [الزمر: 15].

وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (19).

وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا.

أي: ولِكُلٍّ مِن هؤلاءِ الفريقَينِ: فَريقِ المؤمِنِ البارِّ بوالِدَيه، وفَريقِ الكافِرِ العاقِّ لِوالِدَيه- مَنازِلُ عندَ اللهِ يومَ القيامةِ بحَسَبِ ما عَمِلوه في الدُّنيا مِن خَيرٍ وشَرٍّ.

وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ.

أي: ولِيُعطيَهم اللهُ جزاءَ أعمالِهم الَّتي عَمِلوها كامِلًا وافيًا.

وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ.

أي: وهم لا يُظلَمونَ شَيئًا مِن جزاءِ أعمالِهم؛ فلا يُنقَصُ مِن ثَوابِ المحسنينَ، ولا يُزادُ في عِقابِ المسيئينَ، ولا يُحمَّلونَ ذُنوبَ غيرِهم، ولا يُعاقَبونَ على ما لم يعمَلوه.

كما قال تعالى: الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ [غافر: 17].

وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ (20).

وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ.

أي: واذكُرْ –يا محمَّدُ– يومَ يُعرَضُ الَّذين كَفَروا باللهِ على النَّارِ.

أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا.

أي: يُقالُ لهم تَوبيخًا: استَمتَعْتُم بالمَلَذَّاتِ والشَّهَواتِ، فاستَوْفَيْتُموها في دُنياكم؛ فأنتم تُحرَمونَ منها في أُخراكم الَّتي لم تعمَلوا مِن أجْلِها شيئًا!

فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ.

أي: فاليومَ تُجزَونَ العَذابَ الَّذي يُهينُكم ويُخزيكم ويُذِلُّكم.

بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ.

أي: تُجزَونَ عذابَ الهُونِ؛ بسببِ استِكبارِكم في الأرضِ ظُلمًا بغيرِ استِحقاقٍ لذلك.

كما قال تعالى: ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ * ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ [غافر: 75، 76].

وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ.

أي: وتُجزَونَ عَذابَ الهُونِ؛ بسَبَبِ خُروجِكم عن طاعةِ اللهِ، ووُقوعِكم في مَعصيتِه.

كما قال تعالى: وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ [السجدة: 20].

سُورةُ الأحقافِ

الآيات (21–25)

وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (21) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (22) قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (23) فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (24) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (25)

غريب الكلمات:

بِالْأَحْقَافِ: الأحقافُ: جَمعُ حِقْفٍ، وهو ما استطالَ وانحنَى مِنَ الرَّملِ كهَيئةِ الجَبَلِ، ولم يَبلُغْ أن يكونَ جَبَلًا، وأصلُ (حقف): يدُلُّ على مَيلِ الشَّيءِ وعِوَجِه.

خَلَتِ النُّذُرُ: أي مضَتِ الرُّسلُ، يُقالُ: خلا الزَّمانُ، أي: مضى وذهَبَ، والنُّذُرُ جمْعُ نذيرٍ، بمعنى مُنذِرٍ، أي: محَذِّرٍ، والإنذارُ: الإبلاغُ؛ ولا يكادُ يكونُ إلَّا في التَّخويفِ، وأصلُ (نذر): تخويفٌ.

لِتَأْفِكَنَا: أي: لِتَصرِفَنا، وأصلُ (أفك): يدُلُّ على قَلبِ الشَّيءِ وصَرفِه عن جِهتِه.

عَارِضٌ: أي: سَحابًا يَعرِضُ –أي: يبدو– في ناحيةٍ مِن السَّماءِ؛ سُمِّي بذلك لأنَّه يبدو في عَرضِ السَّماءِ، وأصلُ (عرض): يدُلُّ على خِلافِ الطُّولِ.

الْمُجْرِمِينَ: الجُرمُ بالضَّمّ: لا يُطلَقُ إلَّا على الذَّنْبِ الغليظِ، وأصلُه مِن الجَرْمِ وهو القطْعُ، وسُمِّي الذَّنْبُ بالجُرْمِ والجريمةِ؛ لأنَّه كسبٌ، والكسبُ اقْتِطاعٌ.

تفسير الآيات:

وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (21).

وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ.

أي: واذكُرْ -يا محمَّدُ- هُودًا أخا عادٍ في النَّسَبِ حينَ خوَّف وحذَّرَ قَومَه عذابَ اللهِ على كُفْرِهم بمَنطِقةِ الأحقافِ الَّتي كانت فيها مَنازِلُهم.[50]

---

(50) اختُلف في الأحقاف ومكان وجودها على أقوال: الأول: جبل بالشام.

الثاني: أنها أرض.

الثالث: رمال مشرفة على البحر بالشّحْر.

الرابع: واد بين عُمان ومَهَرة.

الخامس: هي بين حضرموت وعمان.

ورجَّح ابنُ جرير (٢١/ ١٥٣ بتصرف) -مستندًا إلى اللغة- جواز صحّة تلك الأقوال، مع عدم القطع بواحد منها، فقال:

«وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يُقال: إن الله -تبارك وتعالى- أخبر أنّ عادًا أنذرهم أخوهم هود بالأحقاف، والأحقاف: الرمال المستطيلة المشرفة...

وجائز أن يكون ذلك جبلًا بالشام، وجائز أن يكون واديًا بين عمان وحضرموت، وجائز أن يكون الشحر.

وليس في العلم به أداء فرْض، ولا في الجهل به تضييع واجب، وأين كان فصفته ما وصفنا مِن أنهم كانوا قومًا منازلهم الرمال المستعلية المستطيلة».

ورجَّح ابنُ عطية (٧/ ٦٢٥) القول بأنها كانت باليمن، فقال: «والصحيح مِن الأقوال: أنّ بلاد عاد كانت في اليمن، ولهم إرم ذات العماد».

ولم يذكر مستندًا.

كما قال تعالى: وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ [الأعراف: 65].

وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ.

أي: وقد مَضَت الرُّسُلُ بإنذارِ قَومِهم عذابَ اللهِ إنْ عَبَدوا غيره، مِن قَبْلِ هُودٍ ومِن بَعدِه.

كما قال تعالى: فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ * إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ [فصلت: 13، 14].

إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ.

أي: قال هودٌ لِقَومِه: إنِّي أخافُ أن يُصيبَكم عذابُ يومٍ هائلٍ.

قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (22).

قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا.

أي: قال كُفَّارُ عادٍ لِنَبِيِّهم هودٍ: أجِئْتَنا لِتَصرِفَنا وتَصُدَّنا عن عبادةِ آلهتِنا، فنَترُكَها إلى عبادةِ اللهِ وَحْدَه؟!

كما قال تعالى: قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ [الأعراف: 70].

فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ.

أي: فعَجِّلْ لنا –يا هودُ– هذا العذابَ الَّذي تَعِدُنا به إنْ كُنتَ مِن الصَّادقينَ فيما تدَّعِيه!

قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (23).

قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ.

أي: قال هودٌ لِقَومِه: إنَّما العِلمُ بوَقتِ مَجيءِ العذابِ عندَ اللهِ لا عندي؛ فهو مَنْ يُنزِلُ عليكم عذابَه متى شاء.

وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ.

أي: وإنَّما أنا رَسولٌ مِنَ اللهِ إليكم، وما عَلَيَّ إلَّا أن أُبَلِّغَكم عن رَبِّكم ما أمَرَني بدَعوتِكم إليه مِنَ التَّوحيدِ وغَيرِه.

كما قال الله تبارك وتعالى: قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ [الأعراف: 61، 62].

وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ.

أي: ولكِنِّي أراكم قومًا تجهَلونَ الحقَّ؛ فصدَر منكم ما صدَر مِن جُرأةٍ على الكُفرِ والتَّكذيبِ.

فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (24).

فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا.

أي: فلمَّا جاء كُفَّارَ عادٍ عَذابُ اللهِ، فرأوه سَحابًا أسْوَدَ مُعترِضًا في الأُفُقِ يَسيرُ نحوَ أودِيَتِهم؛ ظَنُّوه مَطَرًا سيَنزِلُ عليهم، ففَرِحوا به، وقالوا: هذا سَحابٌ سيُمطِرُنا![51]

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((كان النَّبيُّ - ﷺ - إذا عصَفَت الرِّيحُ قال: اللَّهُمَّ إنِّي أسألُك خَيْرَها وخيرَ ما فيها، وخيرَ ما أُرسِلَتْ به، وأعوذُ بك مِن شَرِّها وشَرِّ ما فيها، وشَرِّ ما أُرسِلَت به. قالت: وإذا تخَيَّلَت[52] السَّماءُ تغيَّرَ لَونُه، وخرَجَ ودخَلَ، وأقبَلَ وأدبَرَ، فإذا مَطَرَت سُرِّيَ[53] عنه، فعَرَفْتُ ذلك في وَجهِه، قالت عائِشةُ: فسألْتُه، فقال: لَعَلَّه يا عائِشةُ كما قال قَومُ عادٍ: فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا)).[54]

---

(51) ذكر ابنُ عطية (٧/ ٦٢٦) أن الضمير في قوله: ﴿رأوه﴾ يحتمل احتمالين: الأول: أن يعود على العذاب.
الثاني: أن يعود على الشيء المرئي الطالع عليهم.

(52) تخَيَّلَتْ: أي: تغيَّمَت وظَهَر فيها أثَرُ المَطَرِ.
يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (1115/3).

(53) سُرِّيَ عنه: أي: كُشِفَ الخَوفُ، وأُزيلَ عنه.
يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (1115/3).

(54) رواه البخاريُّ (4829)، ومسلمٌ (899) واللَّفظُ له.

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ النَّبيَّ – ﷺ – قال: ((نُصِرْتُ بالصَّبا،[55] وأُهلِكَتْ عادٌ بالدَّبُورِ))[56]. [57]

بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ.

أي: قيلَ لهم: ما رأيْتُموه ليس سَحابًا مُمطِرًا في الواقعِ كما ظنَنْتُم، وإنَّما هو العذابُ الَّذي استعجَلْتُموه.

رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ.

أي: هو رِيحٌ فيها عَذابٌ مُوجِعٌ شَديدُ الإيلامِ!

كما قال تعالى: فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ [فصلت: 16].

وقال سُبحانَه: وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (6) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (7) فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ [الحاقة: 6 – 8].

---

(55) الصَّبَا: رِيحٌ شَرقيَّةٌ تهُبُّ مِن مَطلَعِ الشَّمسِ، وهي حارَّةٌ يابِسةٌ.
يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (1114/3).
(56) الدَّبُورُ: رِيحٌ غَربيَّةٌ بارِدةٌ رَطْبةٌ.
يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (1114/3).
(57) رواه البخاري (1035)، ومسلم (900).

تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ

(25).

تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا.

أي: تُهلِكُ الرِّيحُ كُلَّ شَيءٍ مَرَّت به ممَّا أُرسِلَتْ بهلاكِه بإذْنِ اللهِ لها في ذلك.

كما قال تعالى: وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ * مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ [الذاريات: 41، 42].

فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ.

أي: فأصبحَ قَومُ هُودٍ هالِكِينَ كُلُّهم؛ فلا يُرَى مِن بلادِهم شَيءٌ إلَّا مَنازِلُهم الَّتي كانوا يَسكُنونَها.(58)

(58) اختُلف في قراءة قوله: ﴿فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم﴾؛ فقرأ ذلك قوم: «لا تَرى إلّا مَساكِنَهُمْ» بالتاء نصبًا.

وقرأ آخرون: ﴿لا يُرى إلّا مَساكِنُهُمْ﴾.

وقرأ غيرهم: (لا تُرى إلّا مَساكِنُهُمْ).

وذكر ابنُ جرير (٢١/ ١٥٨ – ١٥٩) أن القراءة الأولى بمعنى: فأصبحوا لا ترى أنت –يا محمد– إلا مساكنهم.

وأنّ القراءة الثانية بالياء ورفع المساكن، بمعنى: أنه لا يرى في بلادهم شيء إلا مساكنهم.

وبنحوه قال ابنُ عطية (٧/ ٦٢٧).

ورجَّح ابنُ جرير (٢١/ ١٥٩) صحة القراءة الأولى والثانية؛ لقراءة القراء بها، فقال: «وبأي القراءتين اللتين ذكرت قرأ ذلك القارئ فمصيب، وهو القراءة برفع المساكن إذا قرئ قوله: ﴿يرى﴾ بالياء وضمّها.

وبنصب المساكن إذا قرئ قوله: ﴿ترى﴾ بالتاء وفتحها».

كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ.

أي: مِثلَ هذا الجزاءِ الَّذي جازَيْنا به عادًا قومَ هودٍ في الدُّنيا نَجزي القومَ الكافِرينَ الَّذين طَغَوا وعَتَوا؛ فلْيَحذَرِ المُشرِكونَ المُخالِفونَ أمرَ اللهِ أن نُهلِكَهم كما أهلَكْنا مَن قَبْلَهم.

كما قال تعالى: وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ * ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ [يونس: 13، 14].

وانتقد القراءة الأخيرة مســـتندًا إلى اللغة، فقال: «وأما التي حكيت عن الحســـن فهي قبيحة في العربية، وإن كانت جائزة، وإنما قبحت لأن العرب تذكّر الأفعال التي قبل» إلا «، وإن كانت الأسماء التي بعدها أسماء إناث، فتقول: ما قام إلا أختك، ما جاءني إلا جاريتك.

ولا يكادون يقولون: ما جاءتني إلا جاريتك.

وذلك أن المحذوف قبل» إلا «» أحد «، أو» شيء «و» أحد «، و» شيء «تذكّر فعلهما العرب، وإن عني بهما المؤنث، فتقول: إن جاءك منهن أحد فأكرمه، ولا يقولون: إن جاءتك».

وكذا انتقدها ابنُ عطية (٧/ ٦٢٨) بقوله: «وفي هذه القراءة استكراه».

سُورةُ الأحقافِ

الآيات (26-28)

وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ
وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِئُونَ (26) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (27)
فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا
يَفْتَرُونَ (28)

غريب الكلمات:

مَكَّنَّاهُمْ: أي: ثبَّتْناهم، وملَّكْناهم، وأقدَرْناهم على ما يُريدونَ برَفعِ الموانعِ، والتَّمكينُ مِن الشَّيءِ: إعطاءُ ما يَصِحُّ به الفِعلُ مِن الآلاتِ والعُدَدِ والقُوى، وأصلُه مُشتَقٌّ مِن المكانِ، يقالُ: مَكَّن له في الأرضِ: جعَل له مكانًا فيها.

وَأَفْئِدَةً: جمعُ فُؤادٍ وهو: القلبُ؛ سُمِّي بذلك لحرارتِه أو لتَوقُّدِه، وأصلُ (فأد): يدُلُّ على حُمًّى وشدَّةِ حرارةٍ.

يَجْحَدُونَ: أي: يَكْفرونَ، أو يُنكِرونَ بألسنتِهم وهم مُستيقِنونَ، والجُحودُ: نفْيُ ما في القلبِ إثباتُه، وإثباتُ ما في القلبِ نَفْيُه، وأصلُ (جحد): يدُلُّ على قلَّةِ الخَيرِ.

وَحَاقَ: أي: أحاطَ ونزَل، وأصلُ (حيق): يدُلُّ على نُزُولِ الشَّيءِ بالشَّيءِ.

وَصَرَّفْنَا: أي: نَوَّعْنا وبَيَّنَّا، والصَّرفُ: ردُّ الشَّيءِ مِن حالةٍ إلى حالةٍ، وأصلُه: يدُلُّ على رَجْعِ الشَّيءِ.

قُرْبَانًا: القُربانُ: اسمٌ لِما يُتقَرَّبُ به إلى اللهِ مِن ذَبحٍ أو غَيرِه، وأصلُه مَصدَرٌ كالرُّجْحانِ والعُدوانِ والكُفرانِ، ثمَّ سُمِّيَ به نَفْسُ المُتقَرَّبِ به، وأصلُ (قرب): يدُلُّ على خِلافِ البُعْدِ.

إِفْكُهُمْ: أي: كَذِبُهم، وقيل: الإفكُ: أشدُّ الكذبِ، وأصلُ (أفك): يدُلُّ على قَلبِ الشَّيءِ، وصَرفِه عن جِهتِه، فالكذبُ: صرفٌ للكلامِ عمَّا يَنبغي أن يكونَ عليه.

يَفْتَرُونَ: أي: يختَلِقونَ ويَكْذِبونَ، والافتِراءُ: الاختِلاقُ، وهو ما عَظُمَ مِن الكَذبِ، ومنه قيل: افْترى فُلانٌ على فُلانٍ، إذا قذَفه بما ليسَ فيه، وأصلُ (فري): قَطْعُ الشَّيءِ.

تفسير الآيات:

وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (26).

وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ.

أي: قال اللهُ لكُفَّارِ قُرَيشٍ: ولقد مكَّنَّا عادًا في الَّذي لم نُمكِّنْ لكم فيه؛ مِن كَثرةِ الأموالِ، وقوَّةِ الأبدانِ، وغيرِ ذلك، فأهلَكْناهم بسَبَبِ كُفرِهم، معَ أنَّهم أعظَمُ منكم تمكينًا؛ فلا تَظنُّوا أنَّ ما مُكِّنتُم فيه سيَدفَعُ عنكم شيئًا مِن عذابِ اللهِ إن استَمرَرتُم على كُفرِكم وتكذيبِكم!

كما قال الله تعالى: أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ [الأنعام: 6].

وقال سُبحانَه: أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ [غافر: 82].

وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً.

أي: وجعَلْنا لكُفَّارِ عادٍ سَمعًا لِيَسمَعوا به الحقَّ، وأبصارًا لِيُبصِروه بها، وقُلوبًا لِيَعقِلوه بها، فلم يَنقُصْهم شَيءٌ مِن شأنِه أن يُخِلَّ بإدراكِهم للحَقِّ.

فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ.

أي: فما نفَعَهم ما أُوتُوه مِنَ السَّمعِ والأبصارِ والعُقولِ شَيئًا؛ إذْ لم يَستَعمِلوها في مَعرِفةِ الصَّوابِ، ولم يُعمِلوها لِدَفعِ العذابِ.

إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ.

أي: لم يَنتَفِعْ كُفَّارُ عادٍ بسَمعِهم وأبصارِهم وقُلوبِهم؛ لأنَّهم كانوا يُكذِّبونَ بآياتِ اللهِ الدَّالَّةِ لهم على الحَقِّ.

وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ.

أي: ونَزَل وأحاطَ بهم عذابُ اللهِ، الَّذي كانوا يَسخَرونَ منه، ويُكذِّبونَ بوُقوعِه؛ فاحذَروا -أيُّها المُشرِكونَ- أن يُصيبَكم مِثلُ ما أصابَهم.

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (27).

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى.

أي: ولقد أهلَكْنا ما حوْلَكم –يا أهلَ مكَّةَ– مِن القُرى؛ كبلادِ عادٍ، وسَبَأٍ، وثمودَ، ومَدْيَنَ، وغيرِها.

وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ.

أي: ونوَّعْنا أصنافَ الآياتِ وبَيَّنَّاها؛ لِيَرجِعوا عن كُفرِهم باللهِ، وتَكذيبِهم بالحَقِّ، فلم يَفعَلوا؛ فأهلَكْناهم.

فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (28).

فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً.

أي: فهَلَّا نصَرَهم مِن عذابِ اللهِ مَنِ اتَّخَذوهم آلهةً مِن دونِ اللهِ يتقَرَّبونَ بعبادتِهم إلى اللهِ؛ لِيَشفَعوا لهم عِندَه!

كما قال تعالى: وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ [الجاثية: 10].

وقال تعالى: وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى [الزمر: 3].

وقال سبحانه: وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ [يونس: 18].

بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ.

أي: ليس الأمرُ كما ظنَّ المُشرِكونَ، فلمْ تَنصُرْهم مَعبوداتُهم مِن دونِ اللهِ، وغابَتْ عنهم عندَ نُزولِ العذابِ بهم، فلم تَنفَعْهم!

وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ.

أي: اتِّخاذُهم الآلهةَ مِن دونِ اللهِ هو كَذِبُهم وافتِراؤُهم حينَ ادَّعَوا أنَّها آلِهةٌ تَنصُرُهم وتَنفَعُهم، فخذَلَتْهم ولم ينتَفِعوا بها.

سُورةُ الأحقافِ

الآيات (29–32)

وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ
وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (29) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا
بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (30) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ
يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (31) وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ
فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (32)

غريب الكلمات:

صَرَفْنَا: أي: وَجَّهْنا وبَعَثْنا، وأصلُ (صرف): يدُلُّ على رَجْعِ الشَّيءِ.

نَفَرًا: النَّفَرُ: ما بيْنَ الثَّلاثةِ إلى العَشَرةِ، وأصلُ (نفر): يدُلُّ على تَجافٍ وتَباعُدٍ، ومنه النَّفَرُ؛ لأنَّهم يَنْفِرون للنُّصرةِ.

أَنْصِتُوا: أي: اسْكُتوا سُكوتَ المسْتَمِعينَ، والإنصاتُ: هو الاستِماعُ معَ تركِ الكلامِ، وأصلُ (نصت): يدُلُّ على السُّكوتِ.

وَيُجِرْكُمْ: أي: يُنقِذْكم ويَمنَعْكم، يُقالُ: أجَرْتُ فُلانًا: إذا استغاثَ بك فحَمَيْتَه.

بِمُعْجِزٍ: أي: فائِتٍ وسابقٍ، وأصلُ (عجز): يدُلُّ على تأخُّرٍ عن الشَّيءِ.

أَوْلِيَاءُ: أي: أنصارٌ، والوِلايةُ النُّصرةُ، وأصْل (ولي): يدُلُّ على قُرْبٍ؛ سواءٌ مِن حيثُ: المكانُ، أو النِّسبةُ، أو الدِّينُ، أو الصَّداقةُ، أو النُّصرةُ، أو الاعتقادُ، وكلُّ مَن وَلِيَ أمْرَ آخَرَ فهو وَلِيُّه.

تفسير الآيات:

وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (29).

وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ.

أي: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- حينَ بعَثْنا إليك طائِفةً مِن الجِنِّ يَستَمِعونَ منك القُرآنَ.(59)

---

(59) قال ابنُ عطية (٧/ ٦٣٠): «قوله: ﴿صرفنا﴾ معناه: رددناهم عن حالٍ ما، يحتمل أنها الاستماع في السماء، ويحتمل أن تكون بُعْدهم قبل الوفادة، وهذا بحسب الاختلاف هنا، هل هم الوفد أو المتجسسون؟».

اختُلف هل علم النبي - ﷺ - بقدوم الجن عليه أم لا؟ وساق ابنُ عطية (٧/ ٦٣١) القولين، ثم رجَّح أنّ الوفد الوارد ذكره هنا غير الوفد المشار إليه في سورة الجن، فقال: «والتحرير في هذا أن النبي - ﷺ - جاءه جنٌّ دون أن يعرف بهم، وهم المتفرّقون من أجل الرّجم، وهذا هو قوله تعالى: ﴿قل أوحي إلي﴾ [الجن: ١]، ثم بعد ذلك وفد عليه وفد، وهو المذكور صرْفه في هذه الآية».

ولم يذكر مستندًا.

وساق ابنُ كثير (١٣/ ٣١ - ٣٢) آثارًا تدل على عدم علم النبي بهم حال قراءته، وبيّن أنّ ما يعارضها مِن آثار تقتضي علمه، فيُحتمل أنه كان في مرة أخرى؛ إذ تكاثر الروايات يدل على تكرار توافد الجن عليه، فقال: «فأما ما رواه البخاري ومسلم جميعًا، [وهو حديث ابن مسعود الآتي في الآثار المتعلقة بالآيات أن شجرة آذنت النبي - ﷺ - بالجن] فيحتمل أن يكون هذا في المرة الأولى، ويكون إثباتًا مقدمًا على نفي ابن عباس المذكور في تفسير الآية من طريق العوفي، ويحتمل أن يكون هذا في بعض المرات المتأخرات، والله أعلم.

ويحتمل أن يكون في الأولى ولكن لم يشعر بهم حال استماعهم حتى آذَنَته بهم الشجرة، أي: أعلمته باستماعهم».

وعلَّق (١٣/ ٤٢) على ما جاء عن ابن مسعود من اختلاف في الروايات بأنه يحتمل الآتي: أنه لم يكن مع رسول الله - ﷺ - حال مخاطبته الجنّ ودعائه إياهم، وإنما كان بعيدًا منه، ولم يخرج مع النبي - ﷺ - أحد سواه، ومع هذا لم يشهد حال المخاطبة.

الثاني: أن يكون أول مرّة خرج إليهم لم يكن معه ابن مسعود ولا غيره، ثم بعد ذلك خرج معه ليلة أخرى.

وعلَّق ابن عطية (٧/ ٦٣٢) على ما روي عن ابن مسعود بقوله: «واضطربت الروايات عن عبد الله بن مسعود...

فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا.

أي: فلمَّا حَضَروه قال بَعضُهم لِبَعضٍ: اسكُتوا لِنَستَمِعَ إليه.

فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ.

أي: فلمَّا فَرَغَ النَّبيُّ – ﷺ – مِن قراءةِ القُرآنِ انصَرَف أولئك النَّفَرُ إلى قَومِهم مِن الجِنِّ مُخَوِّفينَ لهم، ومُحَذِّرينَ مِن عَذابِ اللهِ إنْ لم يُؤمِنوا به.(60)

قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (30).

قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ.

فاختصرتُ هذه الروايات وتطويلها؛ لعدم صحتها».

(60) ذكر ابنُ جرير (٢١/ ١٧١) قولًا بأنّ رسول الله – ﷺ – جعل هؤلاء النّفر رسلًا إلى قومهم، ونسبه لابن عباس.

ثم علّق عليه بقوله: «وهذا القول خلاف القول الذي روي عنه –المذكور في تفسـير الآية من طريق العوفي– أنه قال: لم يكن نبيُّ الله – ﷺ – علم أنهم استمعوا إليه وهو يقرأ القرآن؛ لأنه محال أن يرسلهم إلى آخرين إلا بعد علمه بمكانهم.

إلا أن يُقال: لم يَعلم بمكانهم في حال استماعهم للقرآن، ثم علم بعد قبل انصرافهم إلى قومهم، فأرسلهم رسلًا حينئذ إلى قومهم، وليس ذلك في الخبر الذي روي».

أي: قالوا لِقَومِهم: يا قَومَنا إنَّا سَمِعْنا كِتابًا -وهو القُرآنُ- أُنزِلَ مِن بَعدِ التَّوراةِ الَّتي أُنزِلَت على موسى،(61) مُوافِقًا لِما قَبْلَه مِن كُتُبِ اللهِ.

يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ.

أي: يُرشِدُ هذا القُرآنُ إلى الحَقِّ، وإلى طَريقٍ لا اعوِجاجَ فيه، مُوصِلٍ إلى اللهِ تعالى وإلى جَنَّتِه.

يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (31).

يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ.

أي: يا قَومَنا أجيبُوا مُحَمَّدًا رَسولَ اللهِ الَّذي يَدعو إلى اللهِ وَحْدَه وطاعتِه، وآمِنوا باللهِ.

يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ.

أي: فإنْ أجَبْتُم داعيَ اللهِ وآمَنْتُم باللهِ فإنَّ اللهَ يَغفِرُ لكم مِن ذُنوبِكم، فيَستُرُها عليكم ولا يُؤاخِذُكم بها.

وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ.

أي: ويُؤَمِّنْكم مِن عَذابٍ مُوجِعٍ شَديدِ الإيلامِ.

---

(61) ذكر ابنُ عطية (٧/ ٦٣٣) أنّ ابن عباس قال: لم يكونوا علِموا أمرَ عيسى - عليه السلام -؛ فلذلك قالوا: مِن بعد موسى.

ثم علَّق بقوله: «وقولهم: ﴿مصدقا لما بين يديه﴾ يؤيد هذا».

وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (32).

وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ.

أي: ومَن لا يُجِبْ مُحمَّدًا رَسولَ اللهِ إلى ما يدعو إليه مِنَ الإيمانِ باللهِ وطاعتِه، فلن يُعجِزَ اللهَ بالهَرَبِ منه إذا أراد عُقوبتَه؛ فهو في قَبضتِه وسُلْطانِه.

كما قال الله تعالى حِكايةً عن قَولِ الجِنِّ: وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا [الجن: 12].

وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ.

أي: وليس له مِن دُونِ اللهِ أنصارٌ يَمنَعونَه ويَحمُونَه مِن عذابِ اللهِ.

أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ.

أي: أولئك في انصرافٍ وذَهابٍ واضِحٍ عن الحَقِّ.

سُورةُ الأحقافِ

الآيات (33–35)

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (33) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (34) فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ

(35))

غريب الكلمات:

يَعْيَ: أي: يَعجِزْ، والعِيُّ: عَدَمُ الاهتِداءِ إلى جهةٍ، ومنه العِيُّ في الكلامِ؛ مِنْ عَيِيَ بالأمرِ: إذا لم يَهتَدِ لِوَجهِ عمَلِه. يُقالُ: عَيِيتَ بالأمرِ: إذا لم تَعرِفْ وَجْهَه. وأصلُ (عيى): يدُلُّ على العَجزِ.

الْعَزْمِ: أي: الحَزمِ والصَّبرِ، وأصلُ (عزم): يدُلُّ على القَطعِ.

بَلَاغٌ: أي: تبليغٌ وعِظةٌ، وأصلُ (بلغ): وُصولٌ إلى الشَّيءِ.

تفسير الآيات:

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (33).

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى.

أي: أَوَلَمْ يَرَ المُنكِرونَ للبَعثِ، المُستَبعِدونَ لقِيامِ الأجسادِ يومَ القيامةِ: أنَّ اللهَ الَّذي خلَقَ السَّمواتِ والأرضَ، ولم يَعجِزْ عن خَلْقِهنَّ –على عَظَمتِهنَّ وسَعَتِهنَّ وإتقانِ خَلْقِهنَّ– أنَّه لا يُعجِزُه إعادةُ النَّاسِ أحياءً بعدَ موتِهم، وأنَّه قادِرٌ على ذلك قُدرةً عَظيمةً تامَّةً؟!

كما قال الله تعالى: أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ [الإسراء: 99].

وقال سُبحانَه وتعالى: لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ [غافر: 57].

بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

أي: قد رأى المُنكِرونَ للبَعثِ وعَلِموا أنَّه قادِرٌ على ذلك؛ إنَّ اللهَ على كُلِّ شيءٍ قَديرٌ، لا يُعجِزُه سُبحانَه شَيءٌ.

وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (34).

وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ.

أي: واذكُرْ –يا محمَّدُ– يومَ يُعرَضُ الَّذين كفَروا باللهِ وكَذَّبوا بالبَعثِ على النَّارِ، ويُقالُ لهم توبيخًا: أليس هذا العذابُ –الَّذي تحضُرونه وتُشاهِدونَه الآنَ، وقد كُنتُم تُكَذِّبونَ به في الدُّنيا– أمرًا ثابتًا واقِعًا؟!

قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا.

أي: قال الكُفَّارُ المُكَذِّبونَ بالبَعثِ: بلى، هذا العَذابُ حَقٌّ ثابتٌ وواقِعٌ، ونُقسِمُ على ذلك برَبِّنا.

كما قال تعالى: وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ [الأنعام: 30].

فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ.

أي: قال اللهُ لهم: فذُوقُوا هذا العذابَ؛ بسَبَبِ كُفرِكم بالحَقِّ في الدُّنيا.

فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (35).

فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ.

أي: فاصبِرْ –يا محمَّدُ– على ما يُصيبُك في اللهِ مِن الأذى والشَّدائِدِ كما صبرَ على ذلك أصحابُ العَزمِ والجدِّ والهِمَّةِ العاليةِ مِن الرُّسُلِ السَّابِقينَ.(62)

كما قال تعالى: وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا [الأحزاب: 7].

وقال تعالى: شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ [الشورى: 13].

وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ.

أي: ولا تَطلُبْ –يا محمَّدُ– تَعجيلَ وُقوعِ العذابِ على المُشرِكينَ؛ فهم مُعَذَّبونَ لا مَحالةَ في الوَقتِ الَّذي قدَّره اللهُ لهلاكِهم.

كما قال تعالى: فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا [مريم: 84].

---

(62) ذكر ابنُ كثير (١٣/ ٥٦) أنّ أشهر الأقوال في أولي العزم أنهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، وخاتم الأنبياء كلّهم محمد – ﷺ –، الذين نصّ الله على أسمائهم مِن بين الأنبياء في آيتين من سورتي الأحزاب والشورى، وأنه يحتمل أن يكون المراد بأولي العزم جميع الرسل، وتكون ﴿من﴾ في قوله: ﴿من الرسل﴾ لبيان الجنس، كما هو قول ابن زيد.

وقال سُبحانَه: وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا * وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا [المزمل: 10، 11].

وقال تبارك وتعالى: فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا [الطارق: 17].

كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ.

أي: كأنَّهم يومَ يَرَونَ عذابَ اللهِ لم يَلبَثوا في الدُّنيا إلَّا ساعةً واحِدةً مِن ساعاتِ النَّهارِ، وينسَونَ طُولَ لُبثِهم في الدُّنيا!

كما قال تعالى: وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ [يونس: 45].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ * قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ [المؤمنون: 112 – 114].

وقال عزَّ وجلَّ: وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ [الروم: 55، 56].

وقال تبارك وتعالى: كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا [النازعات: 46].

بَلَاغٌ.

أي: هذا القُرآنُ بَلاغٌ مِن اللهِ لِعِبادِه.

كما قال تعالى: هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ [إبراهيم: 52].

فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ.

أي: فهل يُهلَكُ بالعذابِ بعدَ هذا البَلاغِ إلَّا القَومُ الَّذين خَرَجوا عن طاعةِ اللهِ تعالى، وكَفَروا به، وخالَفوا أوامِرَه؛ فاستحَقُّوا عَذابَه؟

تَفْسِيرُ
سُورَةِ مُحمَّدٍ

سورة مُحَمَّدٍ

سورةُ مُحَمَّدٍ

سُمِّيتْ هذه السُّورةُ بسُورةِ (مُحمَّدٍ).(63)

سُورةُ محمَّدٍ مَدَنيَّةٌ،(64) وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك.(65)

---

(63) سُمِّيت بذلك؛ لذِكرِ اسمِ الرَّسولِ محمَّدٍ - ﷺ - فيها في قولِه: وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ، فعُرِفَت به قبْلَ سُورةِ (آل عمران) التي فيها: وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ [آل عمران: 144].

يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (430/1)، ((تفسير ابن عاشور)) (71/26).

قال ابنُ عاشور: (سُمِّيَتْ هذه السُّورةُ في كُتُبِ السُّنَّةِ سُورة مُحَمَّدٍ...

وكذلك في التَّفاسيرِ قالوا: وتُسَمَّى سُورَةَ القِتالِ...

وأمَّا تَسميَتُها سُورةَ القتالِ فلأنَّها ذُكِرَتْ فيها مَشروعِيَّةُ القِتالِ، ولأنَّها ذُكِر فيها لفظُه في قولِه تعالَى: وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ).

((تفسير ابن عاشور)) (71/26).

(64) وقيل: السُّورُة مدنيةٌ إلا آيةَ: وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ فهي مكِّيةٌ، وقيل: السُّورةُ مكِّيةٌ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (180/21)، ((تفسير الماوردي)) (290/5)، ((تفسير الزمخشري)) (314/4)، ((تفسير ابن الجوزي)) (115/4).

قال ابنُ عطية (٧/ ٦٣٨): «هذه السورة مدنية بإجماع، غير أنّ بعض الناس قال في قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾ [محمد: ١٣]: إنها نزلت بمكة في وقت دخول النبي فيها عام الفتح أو سنة الحُديبية. وما كان مثل هذا فهو معدود في المدني؛ لأن المراعى في ذلك إنما هو ما كان قبل الهجرة أو بعدها».

(65) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطية، والفيروزابادي.

يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (96/5)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (430/1).

مِن أهمِّ مَقاصِدِ هذه السُّورَةِ:

1- التَّرغيبُ في الجِهادِ في سَبيلِ اللهِ، وقِتالِ المُشرِكين، وكَسرِ شَوكَتِهم، وبيانِ سُوءِ عاقِبَتِهم.

2- الكشْفُ عن أحوالِ المُنافِقين وأوصافِهم، والتَّحذيرُ مِنهم.

مِن أهَمِّ مَوضوعاتِ هذه السُّورةِ:

1- بَيانُ سُوءِ عاقِبَةِ الكافِرين، وحُسنِ عاقِبَةِ المُؤمنين.

2- حضُّ المُؤمنينَ على الإغلاظِ في قِتالِ الكافِرين، وفي أخْذِهم أُسارَى.

3- وَعدُ المُؤمنين بالنَّصرِ متَى نَصَروا اللهَ تعالَى ورسولَه - ﷺ -، وتَبشيرُهم بالجنَّةِ وما فيها من نَعيمٍ، وتَوَعُّدُ الكافِرين بالتَّعاسَةِ والخَيبَةِ، وتَوبيخُهم على عَدَمِ اعتبارِهم واتِّعاظِهم.

4- ذِكرُ جانِبٍ مِن مَواقِفِ المُنافقينَ مِن النَّبيِّ - ﷺ - ومِن دَعوتِه، وذِكرُ بعضِ أوْصافِهِمُ الذَّميمَةِ، كخِداعِهِم وسُوءِ أدَبِهِم، وجُبنِهِم إذا دُعوا إلى القِتالِ.

5- بَيانُ أنَّ نِفاقَ المُنافقينَ كان بسَببِ استِحواذِ الشَّيطانِ عليهم، وتَوعُّدُهم بسُوءِ المصيرِ في حَياتِهِم وبعْدَ مَماتِهِم.

6- تَوَعُّدُ الكافِرين بحُبوطِ أعمالِهِم.

7- أمْرُ المؤْمنين بطاعَةِ اللهِ ورَسولِه، ونَهيهُم عنِ اليأسِ والقُنوطِ، وتَبشيرُهم بالنَّصرِ والظَّفَرِ، وتَحذيرُهم مِن البُخلِ، ودَعوَتُهم إلى الإنفاقِ في سَبيلِ اللهِ تعالَى.

سورةُ مُحمَّدٍ

الآيات (1–3)

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (1) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (2) ذَلِكَ
بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ
لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (3)

غريب الكلمات:

أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ: أي: أبْطَلَ أعمالَهم وأحبَطَها وأتْلَفَها، فلا يَنتفِعون بها في الآخِرةِ، وأصلُ الضَّلالِ: الغَيْبوبةُ؛ يُقالُ: ضَلَّ الماءُ في اللَّبَنِ؛ إذا غاب وغُلِب عليه فلم يُتبيَّنْ. ويُسمَّى الهالِكُ التَّالِفُ: ضالًّا.

كَفَّرَ: أي: سَتَرَ ومحا، وأصلُ (كفر): يدُلُّ على سَترٍ وتغطيةٍ.

بَالَهُمْ: أي: شأنَهم وحالَهم، وقيل: أمْرَ مَعاشِهم في الدُّنيا، والبالُ: الحالُ التي يُكترَثُ بها، يُقالُ: ما باليتُ بكذا بالةً، أي: ما اكْتَرَثْتُ به.

يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ: أي: يُمثِّلُ اللهُ للنَّاسِ الأمثالَ، ويُشبِّهُ لهم الأشباهَ، فيُلحِقُ بكُلِّ قومٍ مِن الأمثالِ أشكالًا؛ لِيَعتبِروا بهم. أو: يُبيِّن لهم مآلَ أعمالِهم، وما يَصِيرون إليه في مَعادِهم، وضَرْبُ الأمْثالِ: اعْتِبارُ الشَّيْءِ بغَيْرِه. أو: إيرادُه لِيُتَمَثَّلَ به ويُتَصوَّرَ ما أراد المُتَكَلِّمُ بيانَه لِلمُخاطَبِ. يُقالُ: ضَرَب الشَّيءَ مَثَلًا، وضَرَب به، وتَمثَّلَه، وتَمثَّل به.

تفسير الآيات:

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (1).

أي: الَّذين كَفَروا بالحَقِّ وصَدُّوا أنفُسَهم وغيْرَهم عن طَريقِه واتِّباعِه، جَعَل اللهُ أعمالَهم سُدًى لا نَفْعَ فيها.(66)

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (2).

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ.

أي: والَّذين آمَنوا وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحةَ بإخلاصٍ للهِ تعالَى ومُتابَعةٍ لِشَرعِه، وآمَنوا بالقُرآنِ الَّذي أنزَلَه اللهُ على نَبيِّه محمَّدٍ -وهذا القُرآنُ هو الحَقُّ الكامِلُ، والصِّدقُ الثَّابِتُ مِن عندِ رَبِّهم-، تَجاوَزَ اللهُ عن مُؤاخَذتِهم بسَيِّئاتِ أعمالِهم، فلا يُعاقِبُهم عليها؛ لأجْلِ إيمانِهم، وعَمَلِهم الصَّالحاتِ.

---

(66) ذكر ابنُ عطية (٧/ ٦٣٨ - ٦٣٩) في قوله: ﴿وصدوا عن سبيل الله﴾ احتمالين، فقال: «وقوله: ﴿وصَدُّوا﴾ يحتمل أن يريد الفعل المجاوز، فيكون المعنى: وصَدُّوا غيرهم.

ويحتمل أن يكون الفعل غير متعدٍّ، فيكون المعنى: وصَدُّوا أنفسهم».

وذكر كذلك في قوله: ﴿أضل أعمالهم﴾ قولين، فقال: «الأول: أنّ المراد بأعمالهم الإنفاق الذي أنفقوه في سفرتهم إلى بدر. وهو قول مقاتل.

الثاني: أن المراد بالأعمال: أعمالهم البرّة في الجاهلية من صلة رحم ونحوه».

ثم علّق على القولين بقوله: «واللفظ يعمّ ذلك».

كما قال الله تعالَى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ [النساء: 170].

وقال سُبحانه: وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ [العنكبوت: 7].

وقال عزَّ وجلَّ: وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ [التغابن: 9].

وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ.

أي: وأصْلحَ اللهُ شأْنَهم وحالَهم.(67)

كما قال تعالَى: مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [النحل: 97].

---

(67) ذكر ابنُ عطية (٧/ ٦٣٩) ما جاء في تفسير السلف البال بالحال والشأن والأمر، ثم علّق قائلًا: «وتحرير التفسير في اللفظة أنها بمعنى الفكر والموضع الذي فيه نظر الإنسان، وهو القلب، فإذا صلح ذلك صلحت حاله، فكأن اللفظة مشيرة إلى صلاح عقيدتهم، وغيرُ ذلك من الحال تابع، فقولك: خطر في بالي كذا، وقولك: أصلح الله بالك: المراد بهما واحد. ذكره المبرد».

وعلّق ابنُ كثير (١٣/ ٥٨) على هذه الأقوال الثلاثة بقوله: «والكل متقارب».

ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (3).

ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ.

أي: ذلك الإضلالُ لأعمالِ الكافِرينَ بسَبَبِ اتِّباعِهم الباطِلَ، وإيثارِهم له على الحَقِّ.

وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ.

أي: وذلك التَّكفيرُ لسَيِّئاتِ المؤمِنينَ وإصلاحُ بالِهم بسَبَبِ اتِّباعِهم الحَقَّ الَّذي جاءهم مِن رَبِّهم.

كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ.

أي: مِثْلَ ذلك البَيانِ لحالِ أو مآلِ الكافِرينَ والمؤمِنينَ يُمَثِّلُ اللهُ للنَّاسِ أصنافَهم وأحوالَهم، بحيثُ لا تخفَى ولا تَلتَبِسُ عليهم؛ فيَتبَيَّنُ لهم الخَبيثُ مِن الطَّيِّبِ، والحَقُّ مِن الباطِلِ.

سورةُ مُحمَّدٍ

الآيات (4–6)

فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ **(4)** سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ **(5)** وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ **(6)**

غريب الكلمات:

فَضَرْبَ الرِّقَابِ: أي: اقتُلوهم؛ يُقالُ: ضَرَبَ الأميرُ رَقَبةَ فُلانٍ: إذا قتَلَه؛ وذلك أنَّ قتْلَ الإنسانِ أكثَرُ ما يكونُ بضَرْبِ رَقَبتِه، والضَّربُ: إيقاعُ شَيءٍ على شَيءٍ، كَضَرْبِ الشَّيءِ باليدِ، والعَصا، والسَّيفِ ونَحْوِها.

أَثْخَنْتُمُوهُمْ: أي: أكثَرتُم القَتلَ فيهم، والإثخانُ: بُلوغُ الغايةِ في النِّكايةِ، والاستِكثارُ مِن القتْلِ، والإثخانُ: الغَلَبةُ؛ لأنَّها تَترُكُ المغلوبَ كالشَّيءِ المُثخَنِ -وهو الثَّقيلُ الصُّلبُ- الَّذي لا يَخِفُّ للحَرَكةِ، وأصلُ (ثخن): يَدُلُّ على رَزانَةِ الشَّيءِ في ثِقَلٍ؛ وذلك أنَّ القَتيلَ قدْ أُثْقِلَ حتَّى لا حَراكَ به.

فَشُدُّوا الْوَثَاقَ: عِبارةٌ عن الأسْرِ، والشَّدُّ: العَقدُ القويُّ، يُقالُ: شَدَدْتُ الشَّيءَ: قَوَّيْتُ عقْدَه، والوَثاقُ -بفَتحِ الواوِ وكَسرِها-: اسْمانِ لِما يُوثَقُ به الشَّيءُ؛ كالقَيدِ والحَبلِ ونَحوِهما، وقيل: الوَثاقُ اسمٌ مِن الإيثاقِ، وقدْ يُوضَعُ مَوضِعَ المصدرِ، وأصلُ (شدد): يَدُلُّ على قُوَّةٍ في الشَّيءِ، وأصلُ (وثق): يدُلُّ على عَقدٍ وإحكامٍ.

مَنًّا: أي: تفَضُّلًا وإنعامًا بإطلاقِهم بلا عِوَضٍ، والمِنَّةُ: النِّعمةُ الثَّقيلةُ، وأصلُ (منن) هنا: يدُلُّ على اصْطِناعِ خيرٍ، وقيل: أصلُ المنِّ القطعُ، وسُمِّيت النِّعمةُ مِنَّةً؛ لأنَّها مَقطوعةٌ عن المِحَنِ والشَّدائدِ، أو: لأنَّه إنَّما يُسْديها الإنسانُ إلى غيرِه؛ لِيَقطَعَ بها حاجتَه لا غيرُ، مِن غيْرِ أنْ يَعمِدَ لطَلَبِ مَثوبةٍ.

فِدَاءً: أي: عِوَضًا مُقابِلَ إطلاقِهم، والفِداءُ: حِفظُ الإنسانِ نفْسَه عن النَّائِبَةِ بما يَبذُلُه، وأصلُ (فدي): أنْ يُجعَلَ شَيءٌ مَكانَ شَيءٍ حِمًى له.

أَوْزَارَهَا: أي: آلاتِها وأثقالَها التي لا تَقومُ إلَّا بها مِن سِلاحٍ ونَحوِه، وقيل: آثامَها، وأصلُ الوِزرِ: الثِّقلُ، وما يَحتَمِلُه الإنسانُ؛ فسُمِّيَت الأسلحةُ أوزارًا لأنَّها تُحمَلُ، ولِثقَلِ حِمْلِها.

لِيَبْلُوَ: أي: لِيَختَبِرَ ويَمتَحِنَ، وأصلُ البَلاءِ: التَّكليفُ بالأمْرِ الشَّاقِّ، ويكونُ في الخَيرِ والشَّرِّ معًا.

فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ: أي: ولنْ يُحبِطَها ويُبْطِلَها، وأصل (ضلل): يدُلُّ على ضَياعِ الشَّيءِ وذَهابِه في غيرِ حَقِّه.

تفسير الآيات:

فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (4).

فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ.

أي: فإذا واجهتُم -أيُّها المؤمنونَ- المحارِبينَ المُقاتِلينَ مِن الكُفَّارِ فاقْتُلوهم.

كما قال الله تبارك وتعالَى: فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ [الأنفال: 12، 13].

حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ.

أي: حتَّى إذا أكثَرتُم القَتلَ فغَلبتُم الكُفَّارَ وقَهرْتُموهم، فقَيِّدوا مَن أسَرْتُموهم منهم تَقييدًا شَديدًا، وارْبِطوهم رَبطًا قَويًّا.

فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً.

الناسخُ والمنسوخُ:

الآيةُ مُحكَمةٌ ولا نسْخَ فيها.[68]

وقيل: الآيةُ مَنسوخةٌ.[69]

---

(68) ممَّن صرَّح بأنَّ الآيةَ مُحكَمةٌ أو ليْستْ بمَنسوخةٍ: ابنُ جرير، والقُرطبيُّ، وابنُ تيميَّة، والشوكانيُّ.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (21/187)، ((تفسير القرطبي)) (16/228)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (4/422)، ((تفسير الشوكاني)) (5/37).
ونَسَب هذا القولَ إلى أكثَرِ أهلِ العِلمِ: الخازنُ، وابنُ كثير، وابنُ عاشور، والشنقيطيُّ.
يُنظر: ((تفسير الخازن)) (4/140)، ((تفسير ابن كثير)) (7/307)، ((تفسير ابن عاشور)) (26/ 80)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (7/248).
قال علَمُ الدِّين السَّخاويُّ: (قال عامَّةُ العُلماءِ بأنْ لا نسْخَ، والنبيُّ - ﷺ - مُخيَّرٌ بيْن الفِداءِ والمنِّ والقتْلِ والاسترقاقِ.
وقد رُوِي مِثلُ هذا عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما).
((جمال القراء وكمال الإقراء)) (2/836).
وقال الشوكانيُّ: (وقال كثيرٌ من العُلماء: إنَّ الآيةَ مُحكَمةٌ، والإمامُ مخيَّرٌ بيْن القتلِ والأسْرِ، وبعْدَ الأسْرِ مخيَّرٌ بيْن المَنِّ والفداءِ.
وبه قال مالكٌ، والشافعيُّ، والثَّوريُّ، والأوزاعيُّ، وأبو عُبيدٍ، وغيرُهم.
وهذا هو الرَّاجحُ؛ لأنَّ النبيَّ - ﷺ - والخلفاءَ الرَّاشدين مِن بعدِه فعَلوا ذلك).
((تفسير الشوكاني)) (5/37).
(69) ممَّن اختار أنها مَنسوخةٌ: ابنُ أبي زَمنين، والنَّسَفيُّ.
يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (4/235)، ((تفسير النسفي)) (3/322).
قال الشوكاني: (قيل: إنَّها مَنسوخةٌ في أهلِ الأوثانِ، وأنَّه لا يجوزُ أن يُفادَوا ولا يُمَنَّ عليهم، وَالنَّاسخُ لها قولُه: فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ، وَقَوْلُهُ: فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ، وقولُه: وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً، وبهذا قال قَتادةُ، وَالضَّحَّاكُ، وَالسُّدِّيُّ، وابن جُريجٍ، وكثيرٌ من الكوفيِّين: قالوا: والمائدةُ آخِرُ ما نزَل، فوجَب أنْ يُقتَلَ كلُّ مُشركٍ إلَّا مَن قامَت الدَّلالةُ على تَركِه مِن النِّساءِ والصِّبيانِ ومَن تُؤخَذ منه الجزيةُ، وهذا هو المشهورُ مِن مَذهبِ أبي حَنيفةَ).
((تفسير الشوكاني)) (5/37).

فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً.

أي: فإمَّا أنْ تمنُّوا على أسرَى الكُفَّارِ بإطلاقِهم مِنَ الأسْرِ مجَّانًا بلا عِوَضٍ، وإمَّا أنْ تأخُذوا منهم عِوَضًا؛ كدَفْعِهم مالًا، أو إخلائِهم أُسارَى مُسلِمينَ لَدَيهم؛ فأنتُم مُخَيَّرونَ -أيُّها المُسلِمونَ- فيهِمْ بعدَ انقِضاءِ الحَربِ.

حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا.

أي: استَمِرُّوا على فِعلِ هذا الذي أُمِرْتُم به مِن قَتلِ الكُفَّارِ المُحارِبينَ وأسْرِهم إلى أنْ تَنْتهيَ الحربُ، ويضَعَ المحاربونَ السِّلاحَ.(70)

وقال عَلَم الدِّين السخاويُّ: (قال ابنُ جُريجٍ والسُّدِّيُّ وغيرُهما في قولِه عزَّ وجلَّ: فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ... إلى قولِه عزَّ وجلَّ: حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا: نُسِخَ جَميعُ ذلك بآيةِ السَّيفِ، فلا يجوزُ المنُّ على المشرِكِ ولا الفداءُ، إلَّا على مَن لا يجوزُ قَتْلُه كالصَّبيِّ والمرأةِ.
وقال الضَّحَّاك وعَطاءٌ: هذه الآيةُ ناسخةٌ لقولِه عزَّ وجلَّ: فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ، فلا يُقتَلُ مُشرِكٌ صَبْرًا، لكنْ يُمَنُّ عليه، ويُفادى به إذا أُيْسِرَ.
وهذا يدُلُّك على أنَّهم تكلَّموا في النَّسخِ بالظَّنِّ والاجتهادِ.
فمِن ثَمَّ قال قَوْمٌ: هو مَنسوخٌ، وقال قَوْمٌ: بلْ هو ناسخٌ).
((جمال القراء وكمال الإقراء)) (836/2).
(70) اختلف السلف في هذه الآية أمحكمة هي أم منسوخة على قولين: الأول: أنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ [التوبة: ٥]، وقوله: ﴿واقتلوهم حيث ثقفتموهم﴾ [البقرة: ١٩١].
الثاني: أنها محكمة.
وقال أصحاب هذا القول: إنّ قتْل الأسير غير جائز، وإنما يجوز المنّ عليه والفداء.
وقد ذكر ابنُ جرير (٢١/ ١٨٧ بتصرف) القولين، ثم رجّح -مستندًا إلى عدم التعارض، وإلى السنة- أنها محكمة، فقال: «وذلك أنّ صفة الناسخ والمنسوخ أنّه ما لم يجز اجتماع حكميهما في حالٍ واحدة، أو ما قامت الحجة بأنّ أحدهما ناسخ الآخر، وغير

عن عِمرانَ بنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رَسولَ اللهِ - ﷺ - قال: ((لا تَزالُ طائِفةٌ مِن أُمَّتي يُقاتِلونَ على الحَقِّ ظاهِرينَ على مَن ناوَأَهم،(71) حتى يُقاتِلَ آخِرُهم المسيحَ الدَّجَّالَ)).(72)

مستنكر أن يكون جعل الخيار في المنّ والفداء والقتْل إلى الرسول - ﷺ -، وإلى القائمين بعده بأمر الأمة، وإن لم يكن القتْل مذكورًا في هذه الآية، لأنه قد أذن بقتْلهم في آية أخرى، وذلك قوله: ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ الآية [التوبة: ٥]، بل ذلك كذلك؛ لأن رسول الله - ﷺ - كذلك كان يفعل فيمن صار أسيرًا في يده من أهل الحرب، فيقتل بعضًا، ويفادي ببعض، ويمُن على بعض، مثل يوم بدر قتَل عُقبة بن أبي مُعَيط وقد أُتِي به أسيرًا، وقتَل بني قريظة وقد نزلوا على حكم سعد، وصاروا في يده سلمًا، وهو على فدائهم والمنّ عليهم قادر، وفادى بجماعة أسارى المشركين الذين أُسروا ببدر، ومَنَّ على ثُمامة بن أُثال الحنفي وهو أسير في يده، ولم يزل ذلك ثابتًا من سِيَرِه في أهل الحرب مِن لدُن أذن الله له بحربهم إلى أن قبضه إليه - ﷺ - دائمًا ذلك فيهم، وإنما ذكر -جلَّ ثناؤه- في هذه الآية المنّ والفداء في الأسارى، فخصَّ ذكرهما فيها؛ لأن الأمر بقتلهما والإذن منه بذلك قد كان تقدَّم في سائر آيِ تنزيله مكررًا، فأعلم نبيّه - ﷺ - بما ذكر في هذه الآية مِن المنِّ والفداء ما له فيهم مع القتل».

وكذا رجّح ابنُ عطية (٧/ ٦٤٠) أن هذه الآية وقوله: ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ [التوبة: ٥] محكمتان، فقال: «وعلى قول أكثر العلماء الآيتان محكمتان.

وقوله هنا: ﴿فَضَرْبَ الرِّقابِ﴾ بمثابة قوله هناك: ﴿فاقْتُلُوا المُشْرِكِينَ حَيْثُ وجَدْتُمُوهُمْ﴾، وصرح هنا بذكر المنّ والفداء، ولم يصرّح به هناك، وهو أمر متقرر، وهذا هو القول القوي».

ولم يذكر مستندًا.

وذكر ابنُ كثير (١٣/ ٦٢) هذا الخلاف، ثم ذكر أثر سلمة بن نفيل -الآتي في الآثار المتعلقة بقوله تعالى: ﴿حَتّى تَضَعَ الحَرْبُ أوْزارَها﴾ -، وعلّق قائلًا: «وهذا يقوي القول بعدم النسخ، كأنه شرع هذا الحكم في الحرب إلى ألّا يبقى حرب».

(71) ناوَأَهم: أي: عاداهم.

يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (67/13).

(72) أخرجه أبو داود (2484)، وأحمد (19920).

صحَّح إسنادَه الطبريُّ في ((مسند عمر)) (824/2)، وشعيب الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (2484)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (2484).

وعن سَلَمةَ بنِ نُفَيلٍ الكِنديّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كُنتُ جالِسًا عند رَسولِ اللهِ – ﷺ –، فقال رجُلٌ: يا رسولَ اللهِ، أذالَ النَّاسُ الخيلَ[73] ووَضَعوا السِّلاحَ، وقالوا: لا جِهادَ؛ قدْ وضَعت الحَربُ أوزارَها![74] فأقبَلَ رَسولُ اللهِ – ﷺ – بوَجهِه، وقال: كَذَبوا! الآنَ الآنَ جاء القِتالُ، ولا يَزالُ مِن أُمَّتي أُمَّةٌ يُقاتِلونَ على الحَقّ، ويُزِيغُ اللهُ لهم قُلوبَ أقوامٍ ويَرزُقُهم منهم حتَّى تَقومَ السَّاعةُ، وحتَّى يَأتيَ وَعدُ اللهِ، والخَيلُ مَعقودٌ في نَواصِيها الخَيرُ[75] إلى يومِ القِيامةِ، وهو يُوحَى إليَّ أنِّي مَقبوضٌ غيرُ مُلَبَّثٍ،[76] وأنتم تَتَّبِعوني أفْنادًا[77] يَضرِبُ بَعضُكم رِقابَ بَعضٍ، وعُقرُ دارِالمؤمِنينَ الشَّامُ)).[78]

---

(73) أذالَ النَّاسُ الخَيلَ: أي: أهانوها واستخَفُّوا بها بقِلَّةِ الرَّغبةِ فيها.
وقيل: أراد أنَّهم وَضَعوا أداةَ الحَربِ عنها وأرسَلوها.
يُنظر: ((حاشية السندي على سنن النسائي)) (214/6).
(74) وضَعَت الحَربُ أوزارَها: أي: انقضَى أمرُها، وخَفَّت أثقالُها فلمْ يَبْقَ قِتالٌ.
يُنظر: ((حاشية السندي على سنن النسائي)) (214/6).
(75) مَعقودٌ في نَواصيها الخيرُ: أي: مُلازِمٌ لها.
يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (158/1).
(76) مُلَبَّثٍ: اسمُ مَفعولٍ مِن ألْبَثَه غَيرُه أو لَبَّثَه بالتَّشديدِ، أي: غيرُ مُؤخَّرٍ في الدُّنيا، بل أنتقِلُ للدَّارِ الآخِرةِ.
يُنظر: ((حاشية السندي على سنن النسائي)) (215/6).
(77) أفنادًا: أي: جَماعاتٍ مُتفرِّقِينَ.
يُنظر: ((حاشية السندي على سنن النسائي)) (215/6).
(78) عُقرُ دارِ المُؤمِنينَ: أي: أصلُها ومَوضِعُها.
يُنظر: ((حاشية السندي على سنن النسائي)) (215/6).
أخرجه النَّسائيُّ (3561) واللفظ له، وأحمد (16965).
صحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح سنن النسائي)) (3561)، وحسَّنه الوادعي في ((الصحيح المسند)) (451)، وحسَّن إسنادَه شعيب الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (16965).

ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ.

أي: أمَرَكم اللهُ –أيُّها المُؤمنونَ– بما سَبَق ذِكرُه مِن جِهادِ الكُفَّارِ المحارِبِينَ، والحالُ أنَّه لو شاء اللهُ سُبحانَه لانتقم من الكُفَّارِ بعقوبةٍ مِنه لهم عاجلةٍ، دونَ أنْ يُكَلِّفَكم بقِتالِهم.

وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ.

أي: ولكِنْ شَرَع اللهُ الجِهادَ لِيَختبِرَكم –أيُّها المُؤمنونَ– بالكافِرينَ؛ فيَتبيَّنَ المجاهِدونَ مِنكم والصابِرونَ، ويُثيبَهم، ويَختارَ منكم الشُّهَداءَ، ويَختَبِرَ الكافِرينَ بكم؛ فيُعاقِبَ بأيدِيكم مَن يَشاءُ مِنهم، ويُخْزِيَهم، ويُوَفِّقَ للتَّوبةِ منهم مَن يَشاءُ، ويَتبيَّنَ أهلُ الصِّدقِ والنِّفاقِ.

كما قال تعالَى: إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (140) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (141) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ [آل عمران: 140 – 142].

وقال سُبحانَه: قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ [التوبة: 14، 15].

وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ.

أي: والَّذين جاهَدوا الكُفَّارَ فقُتِلوا واستُشْهِدوا في سَبيلِ اللهِ؛ لنْ يُحبِطَ اللهُ أعمالَهم، بلْ يتقَبَّلُها منهم، ويُثيبُهم عليها.(79)

---

(79) ممَّن اختار أنَّ المعنى: سيَهْدِيهم إلى جَنَّتِه: مكّيٌّ، وابنُ كثير.

يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (6887/11)، ((تفسير ابن كثير)) (309/7).

وقال ابن عَطية: (سَيَهْدِيهِمْ أي: إلى طَريقِ الجنَّة).

((تفسير ابن عطية)) (111/5).

ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (41/28) وقال السعدي: (سَيَهْدِيهِمْ إلى سُلوكِ الطَّريقِ الموصلةِ إلى الجنَّة).

((تفسير السعدي)) (ص: 785).

وقال القُرْطبي: (قال أبو المَعَالي: وقَدْ تَرِدُ الهِدايةُ والمُرادُ بها إرْشادُ المُؤمنينَ إلى مَسالِكِ الجِنَانِ والطُّرقِ المُفْضِيةِ إليها، ومِن ذلك قوْلُه تعالَى في صِفةِ المُجاهِدينَ: فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ، ومنْه قوْلُه تعالَى: فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ [الصافات: 23]، مَعناه: فاسْلُكوا بهِمْ إليها).

((تفسير القرطبي)) (230/16).

وقيل: المعنى: أنَّه تعالَى يَهديهم إلى التَّوحيدِ في قُبورِهم، يَعني عِند سُؤالِ مُنكرٍ ونَكيرٍ.

وممَّن ذهَب إليه: مقاتلُ بن سليمان.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (45/4).

ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (230/16).

وقال السَّمرقندي: (يُجنِّبُهم مِن أهوالِ الآخِرة).

((تفسير السمرقندي)) (298/3).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: سيَهْديهم أيَّامَ حَياتِهم في الدُّنيا إلى أرشَدِ الأمورِ، وفي الآخِرةِ إلى الدَّرجاتِ: البَغويُّ، والخازنُ، وابنُ عادل، والعُليميُّ، والشِّربينيُّ.

يُنظر: ((تفسير البغوي)) (211/4)، ((تفسير الخازن)) (141/4)، ((تفسير ابن عادل)) (434/17)، ((تفسير العليمي)) (312/6)، ((تفسير الشربيني)) (24/4).

ويُنظر أيضًا: ((تفسير الثعلبي)) (31/9)، ((تفسير الشوكاني)) (38/5).

وقال جَلالُ الدِّين المحلِّيُّ: (سَيَهْدِيهِمْ في الدُّنيا والآخرةِ إلى ما ينفعُهم، وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ حالَهم فيهما، وما في الدُّنيا لمَن لم يُقتَلْ، وأُدرِجوا في قُتِلُوا تَغليبًا).

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

((تفسير الجلالين)) (ص: 673).

وقال مكّيٌّ: (يجوزُ أنْ يكون المعنى: سيَهْدي مَن بَقِي منهم حيًّا).

((الهداية إلى بلوغ النهاية)) (11/6887).

وذهَب ابنُ القيِّم إلى احتِمالِ أنْ يكونَ قَولُه تعالى: سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ إخبارًا مِن اللهِ تعالَى عمَّا يَفعَلُه بالمجاهِدينَ قبْل أن يُقتَلوا، وأتَى به بصِيغةِ المُستقبَلِ إعلامًا منه بأنَّه يُجدِّدُ لهم كلَّ وَقتٍ نوعًا مِن أنواعِ الهدايةِ وإصلاحِ البالِ شيئًا بعْد شيءٍ، فجعَلَ لهم جَزاءً في الدُّنيا بالهدايةِ على الجِهادِ، وجَزاءً في الآخِرةِ بدُخولِ الجنَّةِ، فيَرُدُّ السَّامعُ كُلَّ جُملةٍ إلى وَقتِها؛ لظُهورِ المعنى، وعدَمِ الْتباسِه.

يُنظر: ((شفاء العليل)) (ص: 161).

ممَّن اختار في الجُملةِ أنَّ معنى وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ أي: حالَهم، وأمْرَهم، وشأْنَهم: ابنُ أبي زَمنين، والسَّمعانيُّ، وابنُ كثير، والشوكانيُّ.

يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (4/237)، ((تفسير السمعاني)) (5/170)، ((تفسير ابن كثير)) (7/309)، ((تفسير الشوكاني)) (5/38).

وقيل: معناه: يُصلِحُ حالَهم في الآخِرةِ.

وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى: مقاتلُ بن سليمان.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (4/45).

وممَّن اختار أنَّ معنى وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ أي: يُرْضي خُصماءَهم، ويَقبَلُ أعمالَهم: الثَّعلبيُّ، والبغَويُّ، والنَّسفيُّ، وابنُ عادل، والعُليميُّ.

يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (9/31)، ((تفسير البغوي)) (4/ 211)، ((تفسير النسفي)) (3/324)، ((تفسير ابن عادل)) (17/434)، ((تفسير العليمي)) (6/312).

وقيل: المعنى: يُصلِحُ شأْنَهم في الجنَّةِ بالنَّعيمِ المقيمِ، وغُفرانِ الذُّنوبِ، ويُدخِلُهم إيَّاها.

قاله مكّيٌّ.

يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (11/6887).

وقال ابنُ جريرٍ بناءً على قِراءةِ قَاتَلُوا: (يقولُ تعالى ذِكرُه: سيُوفِّقُ اللهُ تعالَى ذِكرُه للعمَلِ بما يَرْضى ويُحِبُّ، هؤلاء الذين قاتَلوا في سَبيلِه، وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ويُصلِحُ أمْرَهم وحالَهم في الدُّنيا والآخِرةِ).

((تفسير ابن جرير)) (21/191).

ويُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (11/6887).

وقال الزجَّاج بِناءً على قِراءةِ قَاتَلُوا أيضًا: (وقولُه: سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ يُصلِحُ لهم أمْرَ مَعاشِهم في الدُّنيا مع ما يُجازيهم به في الآخِرةِ).

((معاني القرآن وإعرابه)) (5/7).

1- قِراءةُ قُتِلُوا على مَعنى: والَّذين جاهَدوا الكُفَّارَ فاستُشْهِدوا في سَبيلِ اللهِ؛ لنْ يُحبِطَ اللهُ أعمالَهم.(80)

2- قِراءةُ قَاتَلُوا على مَعنى: والَّذين جاهَدوا الكُفَّارَ سواءٌ قُتِلوا أوْ لم يُقتَلوا؛ لن يُحبِطَ اللهُ أعمالَهم.(81)

سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (5).

أي: سيَهديهم اللهُ ويُصلِحُ شأنَهم وحالَهم.

كما قال تعالَى: تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ [يونس: 9، 10].

وقال سُبحانَه وتعالَى: يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ [إبراهيم: 27].

وقال تعالَى: وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ [آل عمران: 169].

(80) قرَأ بها أبو عَمرٍو، ويعقوبُ، وحَفصٌ عن عاصمٍ.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (2/374).
ويُنظر لمعنى هذه القِراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (2/385)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 666).
(81) قرَأ بها الباقون.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (2/374).
ويُنظر لمعنى هذه القِراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (2/385)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 666-667).

وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (6).

أي: ويُدخِلُهم اللهُ الجنَّةَ، ويُبَيِّنُ يومَ القِيامةِ لكُلِّ واحدٍ مِن أهلِها طَريقَه إلى مَوضِعِه منها، فيَهتدي إليه بِلا استِدلالٍ، ويَعرِفُ مَنزلَه بلا إشكالٍ.

كما قال تعالَى:... فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ [آل عمران: 195].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ الله عنه، عن رَسولِ الله – ﷺ – قال: ((إذا خَلَص المؤمنونَ مِن النَّارِ حُبِسوا بقَنطرةٍ[82] بيْنَ الجنَّةِ والنَّارِ، فيَتقاصُّونَ[83] مَظالِمَ كانتْ بيْنَهم في الدُّنيا، حتَّى إذا نُقُّوا وهُذِّبوا أُذِنَ لهم بدُخولِ الجنَّةِ، فوالَّذي نَفْسُ مُحمَّدٍ بيَدِه، لأَحَدُهم بمَسكَنِه في الجنَّةِ أدَلُّ بمَنزِلِه كان في الدُّنيا!))[84].

---

(82) القَنطرةُ: الجسرُ، وهي عبارةٌ عن الصِّراطِ الممدودِ بيْنَ الجنَّةِ والنارِ.

قيل: إنَّها طرَفُ الصِّراطِ ممَّا يَلي الجنَّةَ، ويَحتمِلُ أن تكونَ مِن غيرِه بينَ الصِّراطِ والجنَّةِ.

يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (527/5)، ((فتح الباري)) لابن حجر (96/5)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (3562/8).

(83) فيَتقاصُّون: بتَشديدِ الصَّادِ المُهْمَلةِ: يَتفاعَلون؛ مِن القِصاصِ، والمرادُ به تتبُّعُ ما بيْنَهم مِن المظالِمِ، وإسقاطُ بعضِها.

يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (96/5).

(84) رواه البخاريُّ (2440).

سورةُ مُحمَّدٍ

الآيات (7–11)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (7) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ
وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (8) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (9) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي
الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (10)
ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ (11)

غريب الكلمات:

فَتَعْسًا: أي: عِثارًا وسُقوطًا وهَلاكًا، يُقالُ للعاثِرِ: تَعْسًا: إذا لم يُريدوا قيامَه، وأصلُ (تعس): يدُلُّ على الكَبِّ.

فَأَحْبَطَ: أي: فأبطَلَ وأذهَبَ الأجرَ، وأصلُ (حبط): يدُلُّ على بُطْلانٍ.

عَاقِبَةُ: أي: خاتمةُ. وعاقبةُ كلِّ شَيءٍ: آخرُه، أو: ما يُؤدِّي إليه السَّببُ المتقدِّمُ، والعاقِبةُ تختصُّ بالثَّوابِ إذا أُطلِقتْ، وقد تُستعمَلُ في العقوبةِ إذا أُضيفَتْ، وأصلُ (عقب): تأخيرُ شَيءٍ، وإتيانُه بعدَ غَيرِه.

دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ: أي: أهلَكَهم. وأصلُ التَّدميرِ: إدخالُ الهلاكِ على المُهلَكِ، وأصلُ (دمر): يدُلُّ على الدُّخولِ في البَيتِ وغيرِه.

مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا: أي: وَلِيُّهم وناصِرُهم، والمَوْلَى: الوَلِيُّ القَريبُ، والحَليفُ، والنَّاصِرُ، وأصلُ (ولي): يدُلُّ على القُرْبِ.

تفسير الآيات:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (7).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا إن تَنصُروا دينَ اللهِ ورسولَه يَنصُرْكم اللهُ.[85]

---

(85) ممَّن اختار أنَّ المعنى: إن تَنصُروا دينَ اللهِ ورسولَه يَنصُرْكم على عدوِّكم: البغويُّ، والزمخشري، وابن الجوزي، والرَّسْعَني، والبيضاوي، والنسفي، والخازن.

يُنظر: ((تفسير البغوي)) (211/4)، ((تفسير الزمخشري)) (318/4)، ((تفسير ابن الجوزي)) (117/4)، ((تفسير الرسعني)) (253/7)، ((تفسير البيضاوي)) (120/5)، ((تفسير النسفي)) (324/3)، ((تفسير الخازن)) (141/4).

وقال بعضُ المفسِّرينَ: المعنى: إن تَنصُروا دينَ اللهِ يَنصُرْكم على أعدائِكم.

وممَّن قال ذلك واقتصَر عليه: السَّمَرْقَنْديُّ، والقرطبي، والعُلَيمي، والشوكاني.

يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (299/3)، ((تفسير القرطبي)) (232/16)، ((تفسير العليمي)) (312/6)، ((تفسير الشوكاني)) (38/5).

قال الواحدي: (قال أهل المعاني: إن تَنصُروا دينَ اللهِ ورسولَه بالجهادِ، إلَّا أنَّه أُضيفَ النَّصرُ إلى اللهِ تفخيمًا لِشأنِه وتعظيمًا، وتلَطُّفًا في الاستِدعاءِ إليه، كالتَّلطُّفِ في مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ [البقرة: 245]).

((البسيط)) (226/20).

وقال ابن عطيَّة: (وقولُه تعالى: إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ فيه حذْفُ مُضافٍ، أي: دينَ اللهِ ورسولَه، والمعنى: تَنصُروه بجِدِّكم واتِّباعِكم وإيمانِكم يَنصُرْكُم بخَلْقِ القوَّةِ لكم، والجرأةِ، وغيرِ ذلك مِن المعارِفِ).

وفسَّر السعديُّ نصْرَ اللهِ بالقيامِ بدينِه، والدَّعوةِ إليه، وجهادِ أعدائِه، والقَصدِ بذلك وجْهَ اللهِ تعالى.

وفسَّر نصْرَ اللهِ لهم وتثبيتَ أقدامِهم بالرَّبطِ على قُلوبِهم بالصَّبرِ والطُّمأنينةِ والثَّباتِ، وأن يُصبِّرَ أجسامَهم على ذلك، ويُعينَهم على أعدائِهم.

يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: 785).

وقال البِقاعي: (إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ أي: يَتجدَّدْ لكم نيَّةٌ مُستمِرَّةٌ وفِعلٌ دائمٌ على نُصرةِ دِينِ الملِكِ الأعظَمِ، بإيضاحِ أدلَّتِه وتَبيينِها، وتَوهيةِ شُبَهِ أهلِ الباطِلِ وقتالِهم، ويكونُ ذلك خالصًا له).

((نظم الدرر)) (209/18).

كما قال الله تبارك وتعالى: وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ [الحج: 40].

وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ.

أي: ويُثَبِّتْ أقدامَكم عندَ قِتالِ الكُفَّارِ؛ فلا تخافونَ منهم، ولا تَفِرُّونَ مهما كَثُرَ عَددُهم وقَوِيَتْ عُدَّتُهم.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (8).

وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ.

أي: والَّذين كَفَروا بالحَقِّ فخِزيًا لهم وشَقاءً وهَلاكًا، وعِثارًا وسُقوطًا لا قيامَ بَعدَه.

وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ.

أي: وجَعَل اللهُ أعمالَهم باطِلةً لا نَفْعَ فيها.

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (9).

أي: ذلك الإتْعاسُ للكافِرينَ وإضلالُ أعمالِهم بسَبَبِ أنَّهم كَرِهوا القُرآنَ الَّذي أنزَلَه اللهُ، فأبغَضوه ولم يَقبَلوه ولم يَتَّبِعوه؛ فأبطَلَ اللهُ أعمالَهم، فلا يَنتَفِعونَ منها في الدُّنيا، ولا في الآخِرةِ!

قال السمعاني: (والنَّصرُ مِن اللهِ: هو الحِفظُ والهِدايةُ.
وعن قَتادةَ قال: مَن يَنصُرِ اللهَ يَنصُرْه، ومَن يَسألْه يُعطِه.
ويُقالُ: يَنصُرْكم بتَغليبِكم على عدوِّكم، وإعلائِكم عليهم).
((تفسير السمعاني)) (5/170).

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (10).

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ.

أي: أفلم يُسافِرِ المُشرِكونَ في الأرضِ فيَنظُروا كيف كانت نهايةُ الكُفَّارِ الَّذين مِن قَبْلِهم بسَبَبِ كُفرِهم؟

دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ.

أي: أهلَكَ اللهُ مَنازِلَهم وأموالَهم، وأبادَهم واستأصَلَهم.

وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا.

أي: ولِغَيرِهم مِنَ الكُفَّارِ أمثالُ تلك العاقِبةِ مِن الهلاكِ والدَّمارِ إن لم يُؤمِنوا.(86)

كما قال تعالى: أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ * ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ * كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ [المرسلات: 16 – 18].

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ (11).

---

(86) ذكر ابنُ عطية (٧/ ٦٤٤) في عود الضمير في قوله: ﴿أمثالها﴾ احتمالين، فقال: «والضمير في قوله: ﴿أَمْثَالُهَا﴾ يصح أن يعود على العاقبة المذكورة، ويصح أن يعود على الفعلة التي يتضمنها قوله: ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾».

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا.

أي: ذلك النَّصرُ للمُؤمنينَ والإهلاكُ للكافِرينَ بسَبَبِ أنَّ اللهَ يَتولَّى الَّذين آمَنوا فيَنصرُهم.

كما قال تعالى: اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ... [البقرة: 257].

وقال سُبحانَه: بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ * سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ [آل عمران: 150، 151].

وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ.

أي: وبسَبَبِ أنَّ الكافِرينَ لا وَلِيَّ لهم يَتولَّاهم فيَنصُرُهم.

كما قال تعالى: وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ [العنكبوت: 25].

وقال سُبحانَه: وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ [الشورى: 46].

وعن البراءِ رَضِيَ اللهُ عنه في حديثِ غَزوةِ أُحُدٍ: ((... قال أبو سُفْيانَ: لنا العُزَّى ولا عُزَّى لكم، فقال النَّبيُّ - ﷺ -: أجيبُوه. قالوا: ما نقولُ؟ قال: قولوا: اللهُ مَوْلانا ولا مَوْلَى لكم)).[87]

(87) رواه البخاري (4043).

سورةُ مُحمَّدٍ

الآيات (12-15)

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا
يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ (12) وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً
مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ (13)

أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (14) مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي
وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ
لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ
خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (15)

غريب الكلمات:

مَثْوًى: أي: مَنزِلٌ ومقامٌ ومَأوًى، وأصلُ (ثوي): يدُلُّ على الإقامةِ مع الاستِقرارِ.

بَيِّنَةٍ: أي: بُرهانٍ وحُجَّةٍ وبَيانٍ، والبَيِّنةُ: الدَّلالةُ الواضحةُ، عقليَّةً كانت أو محسوسةً، وأصلُ (بين): انكِشافُ الشَّيءِ، يُقالُ: بانَ الشَّيءُ وأبانَ، إذا اتَّضَح وانكشَف.

أَهْوَاءَهُمْ: الأهواءُ: المذاهِبُ الَّتي تدعو إليها الشَّهوةُ دونَ الحُجَّةِ، وأصلُه: يدُلُّ على الخُلُوِّ والسُّقُوطِ، وسُمِّيَ الهوى هَوًى؛ لأنَّه يَهوِي بصاحِبِه في النَّارِ.

مَثَلُ الْجَنَّةِ: أي: صِفَتُها أو شَبَهُها، وأصلُ (مثل): يدُلُّ على مُناظَرةِ الشَّيءِ للشَّيءِ.

آَسِنٍ: أي: مُنتِنٍ، مُتغَيِّرِ اللَّونِ والرِّيحِ والطَّعمِ، وأصلُ (أسن): يدُلُّ على تغَيُّرِ الشَّيءِ.

حَمِيمًا: أي: شَديدَ الحَرارةِ، وأصلُ (حمم) هنا: الحَرارةُ.

تفسير الآيات:

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ (12).

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ.

أي: إنَّ اللهَ يُدخِلُ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحةَ جَنَّاتٍ تجري الأنهارُ مِن تحتِ أشجارِها.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ.

أي: والَّذين كَفَروا بالحَقِّ يَتمتَّعونَ في الدُّنيا بشَهَواتِها ومَلَذَّاتِها، ويأكُلونَ فيها كما تأكُلُ الأنعامُ الَّتي لا هَمَّ لها سِوى ذلك.

عن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: سَمِعتُ النَّبيَّ - ﷺ - يقولُ: ((المؤمِنُ يأكُلُ في مِعًى واحِدٍ، والكافِرُ يأكُلُ في سَبعةِ أمعاءٍ)).(88)

وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ.

أي: وستَكونُ النَّارُ مَسكنًا لهم يَصيرونَ إليه، ويَستَقِرُّونَ فيه؛ فتُنسِيهم كُلَّ نعيمٍ كانوا فيه!

---

(88) رواه البخاري (5393) واللَّفظُ له، ومسلم (2060).

كما قال تعالى: لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ [آل عمران: 196، 197].

وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ (13).

وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ.

أي: وما أكثرَ القُرى الَّتي كان أهلُها -يا مُحمَّدُ- أكثرَ قُوَّةً وعَدَدًا ومالًا مِن أهلِ مكَّةَ الَّذين أخرَجوكَ منها؛ فأهلَكَهم اللهُ بالعَذابِ، وأبادَهم حينَ كذَّبوا رُسُلَهم.

كما قال تعالى: وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ [الأنفال: 30].

وقال الله تبارَكَ وتعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ [الممتحنة: 1].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَدِيّ ابنِ حَمْراءَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((رأيتُ رَسولَ اللهِ - ﷺ - واقِفًا على الحَزْوَرةِ،[89] فقال: واللهِ إنَّكِ لَخَيْرُ أرضِ اللهِ، وأحَبُّ أرضِ اللهِ إلى اللهِ، ولولا أنِّي أُخرِجْتُ مِنكِ ما خرَجْتُ)).[90]

فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ.

أي: فلم يكُنْ لهم ناصِرٌ يَنصُرُهم، فيَمنَعَ عنهم عذابَ اللهِ حينَ أهلَكَهم اللهُ.

أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (14).

أي: أفمَن كان على بصيرةٍ مِن رَبِّه وعِلمٍ ومَعرفةٍ بالحَقّ، فهو يُؤمِنُ به ويَتَّبِعُه، ويَعرِفُ سُوءَ عَمَلِه وهواه ويجتَنِبُه؛ كالَّذي حُسّن له قبيحُ أعمالِه مِن شِركٍ أو معصيةٍ، فاتَّبعَ ما دعَتْه إليه نَفْسُه مِن الضَّلالاتِ بلا حُجَّةٍ ولا بُرهانٍ؟ لا يَستويانِ![91]

---

(89) الحَزْوَرة: موضعٌ بمكةَ.

يُنظر: ((شرح المشكاة)) للطيبي (2047/6)، ((مرقاة المفاتيح)) للمباركفوري (1868/5).

(90) أخرجه الترمذي (3925) واللَّفظُ له، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (4252)، وابن ماجه (3108)، وأحمد (18715).

قال الترمذي: (حسَنٌ غريبٌ صحيحٌ).

وصحَّحه ابنُ عبدِ البَرِّ في ((الاستذكار)) (451/2)، وابنُ حزم في ((المحلى)) (289/7)، وابنُ حجر في ((فتح الباري)) (81/3)، وابن باز في ((الفوائد العلمية من الدروس البازية)) (123/5)، والألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (3925).

(91) قال ابنُ جرير (٢١/ ١٩٩): «وقيل: إنّ الذي عني بقوله: ﴿أفمن كان على بينة من ربه﴾: نبيّنا -عليه الصلاة والسلام-، وإنّ الذي عني بقوله: ﴿كمن زين له سوء عمله﴾: هم المشركون».

وذكر ذلك ابنُ عطية (٥/ ١١٣)، ثم علّق قائلًا: «وبقي اللفظ عامًّا لأهل هاتين الصفتين غابر الدهر».

كما قال تعالى: أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ [هود: 17].

وقال سُبحانه: أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى [الرعد: 19].

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (15).

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ.

أي: صِفةُ الجنَّةِ الَّتِي وَعَدَ اللهُ بها المتَّقين أنَّ فيها أنهارًا من ماءٍ عَذبٍ صافٍ، غيرِ مُتغيِّرِ الرِّيحِ أو الطَّعمِ أو اللَّونِ.

كما قال تعالى: مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا [الرعد: 35].

وعن أنَسٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((لَمَّا عُرِجَ بالنَّبِيِّ - ﷺ - إلى السَّماءِ قال: أتَيْتُ على نَهرٍ حافتَاهُ قِبابُ اللُّؤلُؤِ مُجَوَّفًا، فقلتُ: ما هذا يا جِبريلُ؟ قال: هذا الكَوثَرُ!)).[92]

بيّن ابنُ عطية (٧/ ٦٤٥) أن قوله: ﴿على بينة﴾ معناه: «على قضية واضحة، وعقيدة نيّرة بيّنة».

ثم ذكر احتمالًا آخر، فقال: «ويحتمل أن يكون المعنى: على أمر بيّن، ودين بيّن، وألحق الهاء للمبالغة كعلّامة ونسّابة».

(92) رواه البخاري (4964).

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ – ﷺ – قال: ((مَنْ آمَنَ باللهِ ورَسولِه، وأقام الصَّلاةَ، وصام رَمَضانَ؛ كان حقًّا على اللهِ أن يُدخِلَه الجنَّةَ؛ هاجَرَ في سَبيلِ اللهِ، أو جلَس في أرضِه الَّتي وُلِدَ فيها. قالوا: يا رَسولَ اللهِ، أفلا نُنَبِّئُ النَّاسَ بذلك؟ قال: إنَّ في الجنَّةِ مِئةَ دَرَجةٍ أعدَّها اللهُ للمُجاهِدينَ في سَبيلِه، كُلُّ دَرجتَينِ ما بيْنَهما كما بينَ السَّماءِ والأرضِ، فإذا سألْتُمُ اللهَ فسَلُوه الفِرْدَوسَ؛ فإنَّه أوسَطُ الجنَّةِ، وأعلى الجنَّةِ، وفوقَه عَرشُ الرَّحمنِ، ومِنه تَفجَّرُ أنهارُ الجنَّةِ!)).[93]

وعن مُعاويةَ بنِ حَيْدةَ القُشَيْريِّ رَضِيَ الله عنه، عن النَّبيِّ – ﷺ – قال: ((إنَّ في الجنَّةِ بَحرَ الماءِ، وبَحرَ العَسَلِ، وبَحرَ اللَّبَنِ، وبَحرَ الخَمرِ، ثمَّ تَشقَّقُ الأنهارُ بَعْدُ)).[94]

وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ.

أي: وفي الجنَّةِ أنهارٌ مِن لَبَنٍ لم يتغيَّرْ طَعمُه بحُموضةٍ أو غَيرِها.

وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ.

أي: وفيها أنهارٌ مِن خَمرٍ طَيِّبةٍ يَلْتَذُّ بها الشَّارِبونَ، بلا صُداعٍ أو غيرِه مِن الآفاتِ.

---

(93) رواه البخاري (7423).

(94) أخرجه الترمذي (2571) واللَّفظُ له، وأحمد (20052).

قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ).

وصَحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((الصحيح)) (7409)، والألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (2571)، وحسَّن إسنادَه شعيبُ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (246/33).

كما قال تعالى: بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ [الصافات: 46].

وقال سُبحانَه: لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ [الواقعة: 19].

وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى.

أي: وفيها أنهارٌ مِن عَسَلٍ خَلَقَه اللهُ في غايةِ الصَّفاءِ، خاليًا مِن سائرِ الشَّوائِبِ والأوساخِ.

وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ.

أي: وللمُتَّقينَ في الجنَّةِ ثَمَراتٌ مِن جَميعِ الأنواعِ.

كما قال تعالى: يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ [الدخان: 55].

وقال سُبحانَه: فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ [الرحمن: 52].

وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ.

أي: ولأهلِ الجنَّةِ معَ ذلك النَّعيمِ العَظيمِ مَغفِرةٌ مِن اللهِ لِذُنوبِهم؛ فيَتجاوَزُ عنها، ولا يُعاقِبُهم عليها، ويَستُرُها.

كما قال تعالى: وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ [التغابن: 9].

وعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ - ﷺ - يقولُ: ((إنَّ اللهَ يُدْني المُؤمِنَ فيضَعُ عليه كَنَفَه[95] ويَستُرُه، فيقولُ: أتَعرِفُ ذَنْبَ كذا؟ أتعرِفُ ذنْبَ كذا؟ فيَقولُ: نعَمْ، أيْ رَبِّ. حتَّى إذا قرَّرَه بذُنوبِه، ورأى في نَفْسِه أنَّه هَلَك، قال: ستَرْتُها عليك في الدُّنيا، وأنا أغفِرُها لك اليَومَ! فيُعطَى كِتابَ حَسَناتِه)).[96]

كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ.

أي: فهل يَكونُ مَنْ في الجَنَّةِ -الَّتي تلك صِفَتُها- كمَن هو ماكِثٌ في النَّارِ أبدًا، وسُقِيَ فيها ماءً قد بَلَغ الغايةَ في شِدَّةِ حَرارتِه، فقَطَّع ما في بَطنِه مِن أمعاءٍ؟!

كما قال تعالى: فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ [الحج: 19، 20].

سورة مُحمَّدٍ

(95) كَنَفَه: أي: حِفْظَه وسِتْرَه.

يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (4/254).

(96) رواه البخاريُّ (2441) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (2768).

الآيات (16–19)

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا
أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (16) وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى
وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (17) فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ
إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ (18) فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ
وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (19)

غريب الكلمات:

آنِفًا: أي: مُنْذُ قَريبٍ، أو السَّاعةَ في أوَّلِ وقتٍ يَقرُبُ منها؛ مِن قَولِك: استأنَفْتُ الشَّيءَ: إذا ابتدَأْتَه، ورَجَعْتَ إلى أوَّلِه، وأصلُ (أنف) هنا: يدُلُّ على أخذِ الشَّيءِ مِن أوَّلِه.

طَبَعَ: أي: خَتَمَ وربَطَ، يُقالُ: طَبَع اللهُ على قَلبِ الكافِرِ، أي: ختَمَ عليه فلا يَعي وَعظًا ولا يُوَفَّقُ لِخَيرٍ، وأصلُه يدُلُّ على التَّغطيةِ على الشَّيءِ، والاستيثاقِ منه، بألَّا يَدخُلَه شَيءٌ، ولا يَخرُجَ منه شَيءٌ.

يَنْظُرُونَ: أي: يَنْتظِرونَ؛ فالنَّظَرُ هنا بمعنى الانتظارِ، وأصْلُ (نظر): تأمُّلُ الشَّيءِ ومُعايَنَتُه، ومنه: نَظَرْتُه، أي: انتَظَرْتُه، كأنَّه يَنْظُرُ إلى الوَقْتِ الذي يأتي فيه.

بَغْتَةً: أي: فَجأةً، وأصلُ (بغت): يدُلُّ على مُفاجأةِ الشَّيءِ.

أَشْرَاطُهَا: أي: عَلاماتُها، واحدُها: شَرَطٌ، ومنه الاشتِراطُ الَّذي يَشترِطُ النَّاسُ بَعضُهم على بعضٍ، إنَّما هي علاماتٌ يجعَلونَها بيْنَهم، وأصلُ (شرط): يدُلُّ على عَلَمٍ وعَلامةٍ.

مُتَقَلَّبَكُمْ: أي: مُتصرَّفَكم وانتِشارَكم في أعمالِكم، وأصلُ (قلب): يدُلُّ على رَدِّ شَيءٍ مِن جِهةٍ إلى جِهةٍ.

وَمَثْوَاكُمْ: أي: مَقامَكم ومُستَقَرَّكم، وأصلُ (ثوي): يدُلُّ على إقامةٍ.

تفسير الآيات:

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (16).

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ.

أي: ومِن الكُفَّارِ قَومٌ يَستَمِعونَ إلى تِلاوتِك القُرآنَ -يا محمَّدُ-، أو إلى حديثِك في خُطَبِ الجُمُعةِ أو غيرِها، وهم المنافِقونَ.

حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا.

أي: فإذا خرَجَ أولئك المنافِقونَ مِن عِندِك -يا محمَّدُ- قالوا لِمَن حَضَر مجلِسَك مِن أهلِ العِلمِ مِن الصَّحابةِ: ماذا قال مُحمَّدٌ مُنذُ وَقتٍ قَريبٍ؟![97]

كما قال تعالى: وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا [الأنعام: 25].

---

(97) ذكر ابنُ عطية (٧/ ٦٤٧) أن المفسرين يقولون: ﴿آنفا﴾ معناه: الساعة الماضية القريبة منّا، وعلّق عليه، بقوله: «وهذا تفسير بالمعنى».

عن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ – ﷺ – أنَّه قال وهو على المِنبَرِ: ((وَيْلٌ لِأَقْماعِ القَولِ،[98] ويْلٌ لِلمُصِرِّينَ الَّذين يُصِرُّونَ على ما فَعَلوا وهم يَعلَمونَ)).[99]

أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ.

أي: أولئك هم الَّذين خَتَمَ اللهُ على قُلوبِهم، فهم لا يَعقِلونَ الحَقَّ، ولا يفهَمونه فَهْمًا يَنتَفِعونَ به.

وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ.

أي: تَرَكوا الحَقَّ، واتَّبَعوا ما دعَتْهم إليه أنفُسُهم مِنَ الباطِلِ والضَّلالاتِ.

وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (17).

---

(98) أقماع القولِ: الأقماعُ: جَمعُ قِمَعٍ، وهو الإناءُ الَّذي يُترَكُ في رُؤوسِ الظُّروفِ لِتُملأَ بالمائعاتِ مِن الأشربةِ والأدهانِ، والمرادُ: الَّذين آذانُهم كالقِمَعِ يَدخُلُ فيه سَماعُ الحقّ مِن جانبٍ، ويَخرُجُ مِن جانبٍ آخَرَ، لا يَستقِرُّ فيه.

يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث)) لابن الأثير (109/4)، ((فتح الباري)) لابن حجر (197/1).

(99) أخرجه مُطوَّلًا أحمدُ (6541)، والبخاريُّ في ((الأدب المفرد)) (380)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (11052)، وأخرجه الطبراني (651/13) (14579) باختلافٍ يسيرٍ.

جوَّد إسنادَه المُنذِريُّ في ((الترغيب والترهيب)) (211/3)، وحسَّنه ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (137/1)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (99/11)، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (12/8)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح الجامع)) (897).

وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى.

أي: والَّذين آمَنوا بالحقِّ واتَّبَعوه زادهم ما سَمِعوا مِنَ القُرآنِ وكلامِ النَّبيِّ إيمانًا وعِلمًا، وعَمَلًا بالحقِّ وثَباتًا عليه.(100)

كما قال الله سبحانه وتعالى عن أصحابِ الكَهفِ: إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى [الكهف: 13].

وقال تعالى: وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى [مريم: 76].

وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ.

أي: وأعطى اللهُ المُهتَدينَ في الدُّنيا تَقواهم إيَّاه، بتوفيقِهم للعَمَلِ بما أُمِروا به، والانتِهاءِ عمَّا نُهوا عنه.

---

(100) ذكر ابنُ عطية (٧/ ٦٤٨) عدة احتمالات في الفاعل في قوله: ﴿زادهم هدى﴾: الأول: أن يكون الفاعل الله تعالى.
وعلّق عليه بقوله: «والزيادة في هذا المعنى تكون إما بزيادة التفهيم والأدلة، وإما بورود الشرائع والنواهي والأخبار فيزيد الاهتداء لتزيد علم ذلك كله والإيمان به وذلك بفضل الله تعالى».
الثاني: أن يكون الفاعل قول المنافقين واضطرابهم في الآية التي قبلها.
وعلّق عليه قائلًا: «لأن ذلك مما يتعجّب المؤمن منه ويحمد الله على إيمانه، ويتزيّد بصيرة في دينه، فكأنه قال: المهتدون والمؤمنون زادهم فعل هؤلاء المنافقين هدى، أي: كانت الزيادة بسببه، فأسند الفعل إليه».
الثالث: أن يكون الفاعل النبي محمد - ﷺ -، وذلك على قول مَن جعل الآية في قوم من النصارى.
ثم علّق عليه قائلًا: «وقوله على هذا القول: ﴿اهتدوا﴾ يريد في إيمانهم بعيسى - عليه السلام - ثم زادهم محمد هدًى حين آمنوا به».
ثم رجّح القول الأول بقوله: «وأقواها أن الفاعل الله تعالى».
ولم يذكر مستندًا.

فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ (18).

فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُم بَغْتَةً.

أي: فهل يَنتَظِرُ المنافِقونَ إلَّا مَجيءَ القيامةِ فَجأةً مِن غيرِ شُعورٍ بها، ولا استِعدادٍ لها؟!

كما قال تعالى: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ [الزخرف: 66].

فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا.

أي: فقد جاءَتهم مُقَدِّماتُ القيامةِ، وعَلاماتُ قُربِها.

كما قال تعالى: اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ [القمر: 1].

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ - ﷺ -: ((إنَّ مِن أشراطِ السَّاعةِ: أن يُرفَعَ العِلمُ، ويَثبُتَ الجهلُ، ويُشرَبَ الخَمرُ، ويَظهَرَ الزِّنا)).[101]

وعن أبي هُريرةَ رَضيَ اللهُ عنه، قال: ((كان رسولُ اللهِ - ﷺ - يومًا بارزًا للنَّاسِ، فأتاه رجُلٌ، فقال:... يا رسولَ اللهِ، متى السَّاعةُ؟ قال: ما المَسؤولُ عنها بأعلَمَ مِنَ السَّائلِ، ولكنْ سأُحَدِّثُك عن أشْراطِها:

(101) رواه البخاري (80)، ومسلم (2671).

إذا وَلَدَتِ الأَمَةُ رَبَّها،[102] فذاك مِن أشْراطِها، وإذا كانتِ العُراةُ الحُفاةُ رُؤوسَ النَّاسِ، فذاك مِن أشْراطِها، وإذا تَطاوَلَ رِعاءُ البَهْمِ[103] في البُنْيانِ، فذاك من أشْراطِها)).[104]

وعن عَمرِو بن تَغلِبَ رَضيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: ((إنَّ مِن أشْراطِ السَّاعةِ: أن يَفيضَ المالُ، ويَكثُرَ الجهلُ، وتَظهَرَ الفِتنُ، وتَفشُوَ التِّجارةُ)).[105]

فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ.

---

(102) رَبَّها: أي: سيِّدَها، والمرادُ أن تَكثُرَ فُتوحُ بلادِ الكفرِ، فيَكثُرَ السَّراريُّ، فتَلِدُ الإماءُ الأولادَ مِن سادَتِهِنَّ، وولدُ السَّيِّدِ بمَنزِلةِ السَّيِّدِ، فتَصيرَ الأمَةُ ولدَتْ ربَّها بهذا الاعتبارِ.

وقيل: المرادُ: أن يَكثُرَ العُقوقُ مِن الأولادِ حتَّى يعامِلَ الولدُ أُمَّه مُعامَلةَ أَمَتِه بالسَّبِّ والإهانةِ.

وقيل غيرُ ذلك.

يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (217/1)، ((فتح الباري)) لابن حجر (122/1).

(103) البَهْم: بفتحِ الباءِ وإسكانِ الهاءِ، هي الصِّغارُ مِن أولادِ الغنمِ؛ الضَّأْنِ والمَعْزِ جميعًا، وقيل: أولادُ الضَّأنِ خاصَّةً، والمعنى: أنَّ أهلَ الفقرِ والحاجةِ تصيرُ لهم الدُّنيا حتَّى يَتباهَوا في البُنيانِ.

يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (163/1)، ((عمدة القاري)) للعيني (286/1).

(104)أخرجه البخاري (4777)، ومسلم (9) واللفظ له.

(105) أخرجه النَّسائي (4456)، وأحمد (78/24009) بنحوه، والحاكِمُ (2147) واللَّفظُ له.

صحَّح إسنادَه الحاكمُ، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (520/39)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن النسائي)) (4456).

أي: فمِن أين لهم الانتِفاعُ بالتَّذكُّرِ والنَّدَمِ والتَّوبةِ إذا جاءَتْهم القيامةُ، وقد فات وَقتُ الإيمانِ، وأُغلِقَ بابُ التَّوبةِ والعَمَلِ بالقُرآنِ؟![106]

كما قال تعالى: يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى [الفجر: 23].

فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (19).

فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.

أي: فاعلَمْ –يا محمَّدُ– أنَّه لا مَعبودَ بحَقٍّ إلَّا اللهُ الَّذي لا تجوزُ العِبادةُ إلَّا له وَحْدَه دون ما سِواه.

عن عُثمانَ بنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ – ﷺ –: ((مَن مات وهو يَعلَمُ أنَّه لا إلهَ إلَّا اللهُ دخَلَ الجنَّةَ)).[107]

---

(106) ذكر ابنُ عطية (٧/ ٦٤٩) في قوله: ﴿فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم﴾ احتمالين، فقال: «وقوله تعالى: ﴿فأنى لهم﴾ الآية، يحتمل أن يكون المعنى: فأنّى لهم الخلاص أو النجاة إذ جاءتهم الذكرى بما كانوا يخبرون به في الدنيا فيكذّبون به وجاءهم العذاب مع ذلك.
ويحتمل أن يكون المعنى: فأنّى لهم ذكراهم وعملهم بحسبها إذا جاءتهم الساعة.
وهذا تأويل قتادة، نظيره: ﴿وأنى لهم التناوش من مكان بعيد﴾ [سبأ: ٥٢]».
(107) رواه مسلم (26).

وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ.

أي: واطلُبْ –يا محمَّدُ– مِن رَبِّكَ مَغفِرةَ ذُنوبِك، وذُنوبِ المؤمنينَ مِن أُمَّتِكَ ذُكورًا وإناثًا؛ فيَستُرُها عليكم، ولا يُؤاخِذُكم بها.

كما قال تعالى حاكيًا دُعاءَ نَبيِّه نُوحٍ عليه السَّلامُ: رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ [نوح: 28].

وقال عزَّ وجلَّ حاكيًا دُعاءَ نَبيِّه إبراهيمَ عليه السَّلامُ: رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ [إبراهيم: 41].

وقال سُبحانَه آمرًا نَبيَّه مُحَمَّدًا عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ [المؤمنون: 118].

وقال تبارك وتعالى: وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ [الحشر: 10].

وعن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ – ﷺ – أنَّه كان يدعو بهذا الدُّعاءِ: ((اللَّهُمَّ اغفِرْ لي خَطيئتي وجَهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلَمُ به مِنِّي، اللَّهُمَّ اغفِرْ لي جِدِّي وهَزْلي، وخَطَئي

وعَمْدي، وكُلُّ ذلك عندي، اللَّهُمَّ اغفِرْ لي ما قدَّمتُ وما أخَّرتُ، وما أسرَرتُ وما أعلَنتُ، وما أنت أعلَمُ به منِّي، أنت المقَدِّمُ وأنت المؤخِّرُ، وأنت على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ)).[108]

وعن عاصمِ بنِ سُلَيمانَ الأحوَلِ، عن عبدِ اللهِ بنِ سَرْجِسَ رَضِيَ الله عنه قال: ((رأيتُ النَّبيَّ - ﷺ - ، وأكلتُ معه خُبزًا ولَحمًا -أو قال: ثَريدًا- قال: فقُلتُ له: أستَغفَرَ لك النَّبيُّ - ﷺ -؟ قال: نعَمْ، ولك، ثمَّ تلا هذه الآيةَ: وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ)).[109]

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((لَمَّا رأيتُ مِن النَّبيِّ - ﷺ - طِيبَ نَفْسٍ قُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، ادْعُ اللهَ لي، فقال: اللَّهُمَّ اغفِرْ لعائِشةَ ما تقَدَّمَ مِن ذَنْبِها وما تأخَّرَ، ما أسَرَّتْ وما أعلَنَتْ. فضَحِكت عائِشةُ حتَّى سَقَط رأسُها في حِجْرِها مِنَ الضَّحِكِ! قال لها رَسولُ الله - ﷺ -: أيَسُرُّكِ دُعائي؟ فقالت: وما لي لا يَسُرُّني دُعاؤُك؟! فقال - ﷺ -: واللهِ إنَّها لَدُعائي لِأُمَّتي في كُلِّ صَلاةٍ)).[110]

---

(108) رواه البخاري (6399)، ومسلم (2719) واللَّفظُ له.

(109) رواه مسلم (2346).

(110) أخرجه البزَّارُ كما في ((مجمع الزوائد)) للهيثمي (246/9)، وابن حِبَّان (7111) واللَّفظُ له.
صحَّحه ابنُ حِبَّانَ، وقال الهيثمي: (رجالُه رجالُ الصَّحيحِ غيرَ أحمدَ بنِ منصورٍ الرَّماديِّ، وهو ثقةٌ).
وحَسَّن إسنادَه الألبانيُّ في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (324/5)، وشعيبُ الأرناؤوطُ في تخريج ((صحيح ابن حبان)) (7111).

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كان رَسولُ اللهِ - ﷺ - إذا صلَّى على جِنازةٍ يقولُ: اللَّهُمَّ اغفِرْ لِحَيِّنا ومَيِّتِنا، وشاهِدِنا وغائِبِنا، وصَغيرِنا وكَبيرِنا، وذَكَرِنا وأُنثانا، اللَّهُمَّ مَن أحيَيْتَه مِنَّا فأحْيِه على الإسلامِ، ومَن تَوَفَّيْتَه مِنَّا فتوَفَّه على الإيمانِ، اللَّهُمَّ لا تَحرِمْنا أجرَه، ولا تُضِلَّنا بَعْدَه)).(111)

وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ.

أي: واللهُ يَعلَمُ تصَرُّفكم وحَرَكاتِكم، ويَعلَمُ مَوضِعَ سُكونِكم وقَرارِكم للرَّاحةِ.(112)

كما قال تعالى: وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ [يونس: 61].

---

(111) أخرجه أبو داودَ (3201)، والترمذيُّ بعد حديث (1024)، والنسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (10919)، وابنُ ماجه (1498) واللفظ له، وأحمدُ (8809).

صَحَّحه ابنُ دقيقِ العيدِ في ((الاقتراح)) (97)، وابن المُلَقِّن في ((البدر المنير)) (5/271)، والألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (1498)، وشعيب الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (3201)، وقال ابن باز في ((حاشية بلوغ المرام)) (356): (له شاهِدانِ وسَنَدُهما جيِّدٌ).

(112) ي قوله: ﴿متقلبكم ومثواكم﴾ قولان: الأول: أن معناه: يعلم تصرّفكم في نهاركم، ومستقركم في ليلكم.

الثاني: أن معناه: مُتقلّبكم في الدنيا، ومثواكم في قبوركم.

وقد رجّح ابنُ كثير (١٣/ ٧٤) الأول بقوله: «والأول أولى وأظهر».

ولم يذكر مستندًا.

وقال سُبحانَه: وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ [هود: 6].

سورةُ مُحمَّدٍ

الآيات (20-24)

وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ (20) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ (21) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (22) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ (23) أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (24)

غريب الكلمات:

مُحْكَمَةٌ: أي: لا نَسْخَ فيها، أو مُحكَمةٌ بالبَيانِ والفرائِضِ، والمُحْكَمُ: ما لا يَعرِضُ فيه شُبهةٌ مِن حيثُ اللَّفظُ، ولا مِن حيثُ المعنى، وأصلُ (حكم): يدُلُّ على المَنعِ.

فَأَوْلَى لَهُمْ: قيل: هو أفعَلُ، مِنَ الوَلْيِ: وهو القُربُ، ومَعناه التَّوعُّدُ والتَّهَدُّدُ، أي: وَلِيَهم المكروهُ، وقارَبَهم ما يُهلِكُهم. وقيل: وَعيدٌ بمعنى: فوَيلٌ لهم، وأصلُ أَوْلى: أَوْيَلُ، مأخوذٌ مِنَ الوَيلِ، أي: أشَدُّ وَيلًا، فوقَعَ فيه قَلبٌ، وقيل غيرُ ذلك.

عَزَمَ الْأَمْرُ: أي: جَدَّ الأمرُ وفُرِض القِتالُ، والعزمُ والعزيمةُ: عقْدُ القلبِ على إمضاءِ الأمرِ.

فَهَلْ عَسَيْتُمْ: أي: لَعلَّكم، يُقالُ: عسَى زَيدٌ أنْ يخرُجَ، أي: لَعَلَّه يَخرُجُ، وعسَى كلمةُ تَرَجٍّ، تقولُ: عسَى يكونُ كذا. وهي تدُلُّ على قُربٍ وإمكانٍ، فهي لِمُقارَبةِ الأمرِ على سبيلِ الرَّجاءِ والطَّمعِ، أي: لِتوقُّعِ حُصولِ ما لم يَحصُلْ، سواءٌ يُرْجَى حُصولُه عن قريبٍ أو بعدَ مُدَّةٍ مديدةٍ.

أَرْحَامَكُمْ: أي: ذَوِي قراباتِكم، والرَّحِمُ هو النَّسَبُ والاتِّصالُ الَّذي يَجمَعُه رحِمُ والِدةٍ فسُمِّيَ باسمِه، وأصلُ (رحم): يدُلُّ على الرِّقَّةِ والعَطفِ والرَّأفةِ؛ سُمِّيَ به رَحِمُ المرأةِ؛ لأنَّ منه يكونُ ما يُرحَمُ ويُرَقُّ له مِن وَلَدٍ.

لَعَنَهُمُ: أي: أخْزاهم وأبْعَدَهم وطَرَدَهم مِن رَحمتِه، وأصلُ اللَّعْنِ: يدُلُّ على الطَّردِ والإبعادِ.

تفسير الآيات:

وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ (20).

وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ.

أي: ويقولُ الَّذين آمَنوا: هلَّا أنزَل اللهُ على رَسولِه سُورةً؛ اشتياقًا منهم لِنُزولِ الوَحيِ، وحِرصًا مِنهم على العَمَلِ بما فيه.

فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ.

أي: فإذا أَنزَلَ اللهُ سُورةً مُحكَمةً، وأوجَبَ فيها قِتالَ الكُفَّارِ؛ رأيتَ المُنافِقينَ الَّذين في قُلوبِهم مَرَضُ الشَّكِّ والنِّفاقِ -يا مُحمَّدُ- يَنظُرونَ إليك بتحديقٍ شديدٍ، كنَظَرِ المحتضَرِ الَّذي شخَص بصَرُه عندَ الموتِ فلا يَطرِفُ؛ وذلك لجُبْنِهم وخَوفِهم وكَراهيَتِهم للجِهادِ.

كما قال تعالى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا [النساء: 77].

وقال سُبحانَه: ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: 19].

فَأَوْلَى لَهُمْ.

أي: يقولُ اللهُ تعالى لأولئك المُنافِقينَ مُحَذِّرًا ومُهَدِّدًا لهم: فأوْلَى لهم.

طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ (21).

طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ.

أي: لو أطاعونا، وقالوا قولًا معروفًا؛ كان أمْثَلَ وأحسَنَ.

فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ.

أي: فلو أنَّ المُنافِقينَ إذا وَجَب القِتالُ وحَضَر وَقتُه، صَدَقوا اللهَ في إيمانِهم وجهادِهم؛ لَكان صِدقُهم خَيرًا لهم في دُنياهم وأُخراهم.(113)

(113) ذكر ابنُ عطية (٧/ ٦٥٢) في قوله: ﴿صدقوا﴾ احتمالين، فقال: «وقوله: ﴿صدقوا الله﴾ يحتمل أن يكون من الصدق الذي هو ضد الكذب.
ويحتمل أن يكون من قولك: عود صدق».
ثم علّق بقوله: «والمعنى متقارب».

كما قال تعالى: وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ [النور: 53].

وقال سُبحانَه: وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا * وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا [النساء: 66 – 69].

ثمَّ ذكر تعالى حالَ المُتوَلِّي عن طاعةِ ربِّه، وأنَّه لا يَتولَّى إلى خَيرٍ، بل إلى شرٍّ، فقال:

فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (22).

أي: فهل يُتوقَّعُ منكم ويُنتَظَرُ -إن أعرَضْتُم عن الحَقِّ، وترَكتُم الجِهادَ- إلا الإفسادُ في الأرضِ -بالكفرِ والمعاصي وسفْكِ الدِّماءِ-، وقطيعةُ الأرحامِ، والعودةُ إلى ما كنتُم فيه مِن الجاهليَّةِ؟!

عن أبي هُرَيرةَ رَضِي اللهُ عنه، عن النَّبيِّ – ﷺ – قال: ((خَلَقَ اللهُ الخَلْقَ، فلمَّا فَرَغ منه قامَت الرَّحِمُ فأخَذَت بحَقْوِ الرَّحمنِ،[114] فقال له: مَهْ،[115] قالت: هذا مَقامُ العائِذِ[116] بك مِن القَطيعةِ، قال: ألَا تَرضَينَ أن أصِلَ مَن وَصَلَك، وأقطَعَ مَن قَطَعَك؟ قالت: بلى يا رَبِّ، قال: فذَاكِ. قال أبو هُرَيرةَ: اقرَؤوا إنْ شِئتُم: فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ)).[117]

---

(114) الحَقْوُ: مَعقِدُ الإزارِ.

يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (8/580).

قال ابنُ تيميَّةَ: (هذا الحديثُ في الجملةِ مِن أحاديثِ الصِّفاتِ الَّتي نصَّ الأئمَّةُ على أنَّه يُمَرُّ كما جاء، ورَدُّوا على مَن نفَى مُوجَبَه). ((بيان تلبيس الجهمية)) (6/222).

(115) مَهْ: اسمُ فِعلٍ معناه الزَّجرُ، أي: اكفُفْ وانزَجِرْ.

وقيل: هي هنا ما الاستِفهاميَّةُ، حُذِفَت ألِفُها، ووُقِفَ عليها بهاءِ السَّكْتِ، والشَّائعُ ألَّا يُفعَلَ ذلك إلَّا وهي مجرورةٌ، لكِنْ قد سُمِعَ مِثلُ ذلك.

يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (8/580).

(116) العائِذِ: أي: المُستَجيرِ.

يُنظر: ((شرح القَسْطَلَّانِي)) (7/343).

(117) رواه البخاري (4830) واللَّفظُ له، ومسلم (2554).

القِراءاتُ ذاتُ الأَثَرِ في التَّفسيرِ:

1- قِراءةُ تُوُلِّيتُمْ بضَمِّ التَّاءِ والواوِ، وكَسرِ اللَّامِ المشَدَّدةِ، مبنيًّا للمَفعولِ، مِنَ الوِلايةِ، قيل: معناها: إنْ تولَّاكم وُلاةُ جَورٍ تحَرَّكتُم معهم في الفِتنةِ، وعاوَنتُموهم على ظُلمِهم. وقيل: معناها: إنْ وَلَّيتُكم أُمورَ النَّاسِ.[118]

2- قِراءةُ تَوَلَّيْتُمْ قيل: معناها: مِنَ الإعراضِ، أي: إن أعرَضتُم عن الحقِّ. وقيل: معناها: مِنَ الوِلايةِ، أي: إنْ توَلَّيتُم أمورَ النَّاسِ، ووَلِيتُم أعمالَهم.[119]

أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ (23).

أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ.

أي: أُولئِك المُفسِدونَ في الأرضِ المُقَطِّعونَ لأرحامِهم هم الَّذين طرَدَهم اللهُ، وأبْعَدَهم مِن رَحمتِه.

---

(118) قرأ بها رُوَيسٌ عن يعقوبَ.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (2/374)، ((البدور الزاهرة)) لعبد الفتاح القاضي (ص: 297).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (2/388)، ((المحتسب)) لابن جِنّي (2/272)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (9/701).

(119) قرأ بها الباقون.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (2/374).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (2/388)، ((الدر المصون)) للسمين (9/701)، ((إتحاف فضلاء البشر)) للبناء (ص: 507).

كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [هود: 18، 19].

وعن جُبَيرِ بنِ مُطعِمٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ – ﷺ – قال: ((لا يَدخُلُ الجَنَّةَ قاطِعُ رَحِمٍ)).(120)

وعن أبي بَكْرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ – ﷺ –: ((ما مِن ذَنْبٍ أجدَرُ أن يُعَجِّلَ اللهُ لِصاحِبِه العُقوبةَ في الدُّنيا مع ما يَدَّخِرُ له في الآخِرةِ: مِنَ البَغيِ وقَطيعةِ الرَّحِمِ)).(121)

وعن عَليِّ بنِ أبي طالبٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ – ﷺ – قال: ((لَعَنَ اللهُ مَن لَعَن والِدَه، ولَعَن اللهُ مَن ذَبَح لِغَيرِ اللهِ، ولَعَن اللهُ مَن آوى مُحْدِثًا،(122) ولَعَن اللهُ مَن غَيَّرَ مَنارَ الأرضِ)(123)).(124)

---

(120) رواه البخاري (5984)، ومسلم (2556) واللَّفظُ له.

(121) أخرجه أبو داودَ (4902)، وأحمدُ (20398) باختلافٍ يسيرٍ، والترمذيُّ (2511)، وابنُ ماجه (4211) واللَّفظُ لهما.

قال الترمذيُّ: (حسَنٌ صَحيحٌ).

وصحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (4211)، وصحَّح إسنادَه الحاكِمُ في ((المستدرك)) (3359)، وشُعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (40/34).

(122) آوى مُحْدِثًا: وهو الَّذي جنَى على غيرِه جنايةً، وإيواؤُه إجارتُه مِن خصمِه، والحيلولةُ بيْنَه وبيْنَ ما يحِقُّ استيفاؤُه.

يُنظر: ((شرح المشكاة)) للطِّيبي (2805/9).

(123) غيَّر مَنارَ الأرضِ: المَنارُ: العَلَمُ والحدُّ بيْنَ الأرْضَينِ، وذلك بأن يُسوِّيَه أو يُغيِّرَه؛ لِيستبيحَ بذلك ما ليس له بحقٍّ من ملكٍ أو طريقٍ.

يُنظر: ((كشف المُشْكِل من حديث الصحيحين)) لابن الجوزي (204/1)، ((شرح المشكاة)) للطِّيبي (2805/9).

(124) رواه مسلم (1978).

فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ.

أي: فسَلَبَهم اللهُ القُدرةَ على سَماعِ الحَقِّ سَماعًا يَنتَفِعونَ به، وسَلَبَهم اللهُ القُدرةَ على رُؤيةِ الحَقِّ على وَجهٍ يَنتَفِعونَ به.

كما قال تعالى: وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ [الأعراف: 179].

وقال سُبحانَه: وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ [الأنفال: 21 – 23].

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (24).

أي: أفلا يَتدبَّرُ القرآنَ هؤلاءِ المعرِضونَ، ويتفهَّمونَه، ويتأمَّلونَه حقَّ التَّأمُّلِ، بل أقفَلَ اللهُ قُلوبَهم، فلا قُدرةَ لهم على أن يَعقِلوا بها، فهي مُطْبَقةٌ لا يَخلُصُ إليها شَيءٌ مِن معانيه؟[125]

(125) ذكر ابنُ القيم (٢/ ٤٥٤) قول مقاتل أنه فسر قوله: ﴿أم على قلوب أقفالها﴾ بالطبع.
ثم وجّهه بقوله: «وكأنّ القلب بمنزلة الباب المرتج الذي قد ضُرب عليه قفل، فإنه ما لم يُفتح القفل لا يمكن فتح الباب والوصول إلى ما وراءه، وكذلك ما لم يُرفع الختم والقفل عن القلب لم يدخل الإيمان والقرآن».

كما قال الله سبحانهُ وتعالى: وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا * أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا [النساء: 81، 82].

وقال سُبحانَه: وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ * رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ [التوبة: 86، 87].

سورةُ مُحمَّدٍ

الآيات (25–28)

إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ (25) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (26) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (27) ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (28)

غريب الكلمات:

سَوَّلَ: أي: زيَّن وسَهَّل، والتَّسويلُ: تَزيينُ النَّفْسِ لِمَا تَحرِصُ عليه، وتصويرُ القَبيحِ منه بصُورةِ الحَسَنِ، وأصلُ التَّسويلِ: تَفعيلٌ مِن سُولِ الإنسانِ، وهو أُمنيَّتُه الَّتي يَتمَنَّاها فتُزَيِّنُ لطالِبِها الباطِلَ والغُرورَ، قيل: مِن السَّوْلِ وهو الاستِرخاءُ، وقيل: أصلُ السُّولِ (السُّؤْلُ) مَهموزًا.

وَأَمْلَى: أي: أمْهَلهم بالمدِّ لهم في العُمُرِ، على أنَّ الإملاءَ راجِعٌ إلى الله، أو: مَدَّ لهم في الآمالِ والأمانيِّ على أنَّ الإملاءَ مِن فِعلِ الشيطانِ، وأصلُ الإملاءِ: يدُلُّ على امتِدادٍ في شَيءٍ؛ زَمانٍ أو غَيرِه.

تفسير الآيات:

إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ (25).

إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ.

أي: إنَّ المُنافِقينَ الَّذين فارَقوا الإيمانَ، ورجَعوا إلى الكُفرِ مِن بَعدِ ما عَرَفوا الحَقَّ، فآثَروا الضَّلالَ على الهُدى بلا بُرهانٍ: إنَّما وَقَع منهم ذلك؛ بسَبَبِ تَزيينِ الشَّيطانِ لهم الارتِدادَ عن الإسلامِ.(126)

كما قال الله تعالى ذِكرُه: وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا * وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا * يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا [النساء: 118 – 120].

وقال سُبحانَه: وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ [الأنفال: 48].

وَأَمْلَى لَهُمْ.

---

(126) ذكر ابنُ عطية (٧/ ٦٥٤) قول من قال: إن هذه الآية نزلت في جماعة من اليهود.

وقول من قال: نزلت في جماعة من المنافقين.

ثم علّق بقوله: «والآية تعم كل مَن دخل في ضمن لفظها غابر الدهر».

أي: ووَقَع منهم ذلك؛ لأنَّ اللهَ مَدَّ للمُنافِقِينَ في آجالِهم، وأمهَلَهم، ولم يُعَجِّلْ عُقوبَتَهم، فاغتَرُّوا.(127)

كما قال تعالى: وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ [الأعراف: 182، 183].

وقال تعالى: وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ [آل عمران: 178].

---

(127) وممَّن ذهب إلى المعنى المذكورِ: الفَرَّاءُ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والسمرقندي، والثعلبي، ومكِّي، والواحدي –وعزاه لأكثَرِ المفسِّرينَ–، والسمعانيُّ، وابنُ عطية، والرَّسْعَني، وأبو حيَّان.

يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (63/3)، ((تفسير ابن جرير)) (219/21)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (14/5)، ((تفسير السمرقندي)) (304/3)، ((تفسير الثعلبي)) (37/9)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (6914/11)، ((الوسيط)) للواحدي (127/4)، ((البسيط)) للواحدي (257/20)، ((تفسير السمعاني)) (182/5)، ((تفسير ابن عطية)) (119/5)، ((تفسير الرسعني)) (272/7)، ((تفسير أبي حيان)) (473/9).

وقيل: المعنى: ومَدَّ الشَّيطانُ للمُنافِقِينَ في الأمَلِ، ووعَدَهم طُولَ العُمُرِ، وغرَّهم وخدَعَهم.

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: البغويُّ، والزمخشري، وابن جُزَي، وابن كثير، وجلال الدين المحلِّي، والعُلَيمي، والشوكاني، والألوسي، والشنقيطي.

يُنظر: ((تفسير البغوي)) (217/4)، ((تفسير الزمخشري)) (326/4)، ((تفسير ابن جزي)) (283/2)، ((تفسير ابن كثير)) (7/ 320، 321)، ((تفسير الجلالين)) (ص: 676)، ((تفسير العليمي)) (322/6)، ((تفسير الشوكاني)) (47/5)، ((تفسير الألوسي)) (231/13)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (380/7).

كما قال تعالى: يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا [النساء: 120].

وقال الله سبحانه وتعالى: وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ [إبراهيم: 22].

وذكر ابنُ جُزَي أنَّ ذلك أظهَرُ؛ لِتَناسُبِ الضَّميرِ بيْن الفاعِلَين.

يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (2/ 283).

وقال عز وجل: وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ [الرعد: 32].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ [الحج: 44].

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

1- قِراءةُ وَأُمْلِيَ بضَمِّ الهَمزةِ، وكَسرِ اللَّامِ، وفَتحِ الياءِ، على صيغةِ ما لم يُسمَّ فاعِلُه.(128)

2- قِراءةُ وَأُمْلِيْ بضَمِّ الهَمزةِ، وكَسرِ اللَّامِ، وسُكونِ الياءِ، على أنَّه مُسنَدٌ إلى المُتكَلِّمِ، بنِسْبةِ الإملاءِ إلى اللهِ تعالى، أي: وأنا أُملِي لهم، كما قال تعالى: إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا [آل عمران: 178]. وقيل: هي كالقِراءةِ السَّابِقةِ، وسُكِّنَت الياءُ تخفيفًا.(129)

3- قِراءةُ وَأَمْلَى بفَتحِ الهَمزةِ واللَّامِ، بنِسبةِ الإملاءِ إلى الشَّيطانِ، أي: وأَملى الشَّيطانُ لهم. أو: هي بمعنى القِراءةِ السَّابِقةِ، أي: واللهُ أَملَى لهم.(130)

---

(128) قرأ بها أبو عَمرٍو.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (374/2).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: 328)، ((معاني القراءات)) للأزهري (386/2).

(129) قرأ بها يعقوبُ.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (374/2).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: 328)، ((معاني القراءات)) للأزهري (386/2)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (703/9).

(130) قرأ بها الباقون.

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (26).

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ.

أي: ذلك التَّسويلُ والإملاءُ المُفضي بهم إلى الكُفرِ قد وَقَع؛ بسَبَبِ قَولِ المُنافِقينَ للكُفَّارِ الَّذين كَرِهوا ما أنزَلَ اللهُ تعالى مِنَ القُرآنِ: سنُطيعُكم ونَتَّبِعُ أهواءَكم في بَعضِ ما كَرِهتُموه مِن الوَحيِ المُنَزَّلِ.

كما قال الله تعالى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ [الحشر: 11].

وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ.

أي: واللهُ يَعلَمُ ما يُخفيه المُنافِقونَ والكافِرونَ، ويُسِرُّونَه بيْنَهم مِنَ الكُفرِ به، ومَعصيةِ رَسولِه.

كما قال تعالى: وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ [النساء: 81].

وقال سُبحانَه: أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ [التوبة: 78].

وقال عزَّ وجلَّ: يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ [هود: 5].

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (374/2).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: 328، 329)، ((معاني القراءات)) للأزهري (387/2).

وقال تبارك وتعالى: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ [المجادلة: 7، 8].

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

1- قِراءةُ إِسْرَارَهُمْ بكَسرِ الهَمزةِ، مَصدَرُ: أَسَرَّ يُسِرُّ، أي: واللهُ يَعلَمُ إخفاءَهم.(131)

2- قِراءةُ أَسْرَارَهُمْ بفَتحِ الهَمزةِ، جَمعُ سِرٍّ، أي: يَعلَمُ الأشياءَ الَّتي يُسِرُّونَها.(132)

فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (27).

---

(131) قرأ بها حمزةُ، والكِسائيُّ، وخلَفٌ، وحفصٌ عن عاصمٍ.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (374/2).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: 329)، ((معاني القراءات)) للأزهري (387/2)، ((تفسير أبي السعود)) (100/8).

(132) قرأ بها الباقون.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (374/2).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: 329)، ((معاني القراءات)) للأزهري (387/2)، ((تفسير أبي السعود)) (100/8)، ((تفسير الألوسي)) (231/13).

أي: فكيف يكونُ حالُ أولئك المنافِقينَ إذا جاءتْهم الملائِكةُ لِقَبضِ أرواحِهم، فأخَذوا يَضرِبونَ وُجوهَهم وأعجازَهم؟(133)

كما قال تعالى: وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ [الأنفال: 50].

ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (28).

ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ.

أي: ذلك الضَّربُ للمُنافِقينَ عندَ مَوتِهم إنَّما هو بسَبَبِ اتِّباعِهم ما أسخَطَ اللهَ؛ بالكُفرِ أو العِصيانِ، ومِن ذلك طاعتُهم الشَّيطانَ، ومُوالاةُ الكُفَّارِ الَّذين كَرِهوا ما أنزَلَ الرَّحمنُ.

---

(133) ذكر ابنُ عطية (٧/ ٦٥٥) في الآية احتمالين، فقال: «وقوله تعالى: ﴿فكيف إذا توفتهم﴾ الآية، يحتمل أن يُتوعّدوا به على معنيين: أحدهما: هذا هلعهم وجزعهم لفرض القتال وقراع الأعداء، فكيف فزعهم وجزعهم إذا توفتهم الملائكة؟! والثاني أن يريد: هذه معاصيهم وعنادهم وكفرهم، فكيف تكون حالهم مع الله إذا توفتهم الملائكة؟! وقال الطبري: المعنى: والله يعلم إسرارهم فكيف علمه بها إذا توفتهم الملائكة».

وبيّن ابنُ عطية أنّ الضمير في قوله: ﴿يضربون﴾ عائد على الملائكة، ثم ذكر قولًا آخر أنّه عائد على الكفار، وانتقده، فقال: «ومن قال: إن الضمير في: ﴿يضربون﴾ للكفار الذين يُتوفّون، فذلك ضعيف».

وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ.

أي: وبسَبَبِ أنَّ المُنافِقينَ كَرِهوا ما يُرضي اللهَ عنهم، كالقِتالِ في سَبيلِه، ولم يكُنْ لهم رغبةٌ فيما يُقرِّبُهم إليه.

فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ.

أي: فأبطَلَ اللهُ أعمالَهم وأذهَبَها؛ فلا نَفْعَ فيها.

كما قال الله سبحانه وتعالى: وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا [الفرقان: 23].

سورةُ مُحمَّدٍ

الآيات (29–31)

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (29) وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (30) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (31)

غريب الكلمات:

أَضْغَانَهُمْ: أي: أحقادَهم، واحِدُها ضِغْنٌ: وهو ما في القَلبِ مُستَكِنٌّ مِن العَداوةِ، وأصلُ (ضغن): يدُلُّ على تغطيةِ شَيءٍ في مَيْلٍ واعْوِجاجٍ.

بِسِيمَاهُمْ: أي: بعَلاماتِهم وآثارِهم، وأصلُ (وسم): يدُلُّ على أثَرٍ ومَعْلَمٍ.

لَحْنِ الْقَوْلِ: أي: مَعاريضِ الكَلامِ ومَعناه وفَحواه، يُقالُ: لَحَنتُ له ألحَنُ: إذا قُلتَ له قولًا يَفقَهُه عنك، ويَخفَى على غَيرِه، وأصلُ (لحن): يدُلُّ على إمالةِ شَيءٍ عن جِهتِه.

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ: أي: لَنَختَبِرَنَّكم ولَنَمتَحِنَنَّكم، والبَلاءُ يكونُ في الخَيرِ والشَّرِّ، وأصلُ (بلو): يدُلُّ على الامتحانِ والاختِبارِ.

تفسير الآيات:

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (29).

أي: بل أحَسِبَ الَّذين في قُلوبِهم مَرَضُ الشَّكِّ والنِّفاقِ أنَّ اللهَ لن يُظهِرَ ما في قُلوبِهم مِن أحقادٍ وعَداوةٍ للإسلامِ وأهلِه؟

وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (30).

وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ.

أي: ولو نَشاءُ لأَرَيْناكَ المُنافِقينَ -يا مُحمَّدُ- بأشْخاصِهم وأعْيانِهم، فتَعرِفُهم بعَلاماتِهم الظَّاهِرةِ في وُجوهِهم.

كما قال تعالى: وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ * وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ [التوبة: 101، 102].

وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ.

أي: وأُقسِمُ –يا محمَّدُ– لَتعرِفَنَّ المنافِقينَ في فَحْوى كلامِهم، وما يَصدُرُ منهم مِن أقوالٍ تدُلُّ على مَقاصِدِهم السَّيِّئةِ.

وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ.

أي: واللهُ يَعلَمُ أعمالَكم، لا يَخْفَى عليه شَيءٌ منها، وسيُجازيكم عليها.

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (31).

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ.

أي: وأُقسِمُ لَنختبِرَنَّ إيمانَكم وصَبْرَكم، فنَأمُرُكم بالجِهادِ حتَّى نَعلَمَ المجاهِدينَ مِنكم والصَّابِرينَ على أداءِ ما فرَضَ اللهُ تعالى، وتَحَمُّلِ البَلاءِ– عِلْمَ شَهادةٍ ووُجودٍ يَترتَّبُ عليه الجَزاءُ.

كما قال الله تبارك وتعالى: وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ [البقرة: 155 – 157].

وقال سُبحانَه: أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ [آل عمران: 142].

وقال تبارَكَ وتعالى: أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ [التوبة: 16].

وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ.

أي: ونختبِرَكم اختبارًا يَكشِفُ أحوالَكم وضمائرَكم، ويُظهِرُ حسَنَها وقبيحَها.

سورةُ مُحمَّدٍ

الآيات (32-35)

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (32) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (33) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (34) فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (35)

غريب الكلمات:

وَشَاقُّوا: أي: عادَوْا، وخالَفوا، وجانَبوا، والمُشاقَّةُ عِبارةٌ عن كَونِ كلِّ واحدٍ مِن الخَصمينِ في شقٍّ غيرِ شقِّ صاحبِه، وأصلُ (شقق): يدُلُّ على انصِداعٍ في شَيءٍ.

تَهِنُوا: أي: تَضعُفوا، وأصلُ (وهن): يدُلُّ على ضَعْفٍ.

السَّلْمِ: أي: الصُّلْحِ والمُهادَنةِ والمُسالَمةِ، وأصلُ (سلم): يدُلُّ على صِحَّةٍ وعافيةٍ.

يَتِرَكُمْ: أي: يَنقُصَكم أو يَظلِمَكم، يُقالُ: وَتَرَه يَتِرُه وَتْرًا وتِرَةً: إذا نَقَصَه، وأصلُه مِنَ الوَتْرِ: وهو الفَردُ؛ فلن يُفرِدَهم ويُجَرِّدَهم مِن أعمالِهم، بل يُوَفِّيهم إيَّاها.

تفسير الآيات:

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (32).

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا.

أي: إنَّ الَّذين كَفروا وصَدُّوا النَّاسَ عن دينِ اللهِ، وخالَفوا رَسولَه مُحَمَّدًا؛ عِنادًا منهم مِن بَعدِ ما تَبَيَّنَ لهم أنَّه رَسولُ اللهِ حَقًّا، وأنَّ الإسلامَ هو دِينُه صِدقًا: لن يَضُرُّوا اللهَ شَيئًا بذلك؛ فهو غَنِيٌّ عنهم، وإنَّما يَضُرُّونَ أنفُسَهم، وسيَنصُرُ اللهُ رَسولَه، ويُظهِرُ دِينَه، ويُعلِي كَلِمتَه.

كما قال تعالى: وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا [النساء: 115].

وقال سُبحانَه: وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ [آل عمران: 97].

وقال الله تبارك وتعالى: يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ [الصف: 8، 9].

وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ.

أي: وسيُبطِلُ اللهُ أعمالَهم؛ فلا يَنالونَ منها نفعًا، ولا يَحصُلونَ منها على طائِلٍ.

كما قال الله تبارك وتعالى: مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ [إبراهيم: 18].

وقال سُبحانَه وتعالى: وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ [النور: 39].

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (33).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا أطيعوا اللهَ وأطيعوا رَسولَه، بامتثالِ الأوامرِ، واجتنابِ النَّواهي، بإخلاصٍ للهِ تعالى، ومُتابَعةٍ لِشَرعِه.

وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ.

أي: ولا تُبطِلوا -أيُّها المُؤمِنونَ- أعمالَكم الصَّالِحةَ، وتُذهِبوها بالشِّركِ، أو الرِّدَّةِ عن الإسلامِ، أو بغيرِ ذلك مِمَّا يُحبِطُ الأعمالَ، ويُذهِبُ نَفْعَها وثوابَها.

كما قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا [البقرة: 264].

وقال سُبحانه وتعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ [الحجرات: 2].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ – ﷺ – قال: ((أَتَدرُونَ ما المُفلِسُ؟ قالوا: المُفلِسُ فينا مَن لا دِرهمَ له ولا مَتاعَ، فقال: إنَّ المُفلِسَ مِن أُمَّتي يأتي يومَ القيامةِ بصَلاةٍ وصيامٍ وزكاةٍ، ويأتي قد شَتَم هذا، وقَذَف هذا، وأَكَلَ مالَ هذا، وسَفَكَ دَمَ هذا، وضَرَب هذا؛ فيُعطَى هذا مِن حَسَناتِه، وهذا مِن حَسَناتِه، فإنْ فَنِيَت حَسَناتُه قبْلَ أن يَقضِيَ ما عليه أُخِذَ مِن خطاياهم، فطُرِحَت عليه، ثمَّ طُرِحَ في النَّارِ!)).(134)

ثمَّ بيَّن سبحانَه أنَّه لا يغفِرُ للمُصِرِّينَ على الكُفرِ، والصدِّ عن سبيلِ الله، فقال:

(134) رواه مسلم (2581).

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (34).

أي: إنَّ الَّذين كَفَروا وصَدُّوا النَّاسَ عن دينِ اللهِ، ثمَّ ماتوا على كُفرِهم مِن غيرِ تَوبةٍ: فلن يَغفِرَ اللهُ ذُنوبَهم؛ فلا يَستُرُها عليهم، ولا يَتجاوَزُ عن مُؤاخَذَتِهم بها.

كما قال الله تبارك وتعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ [البقرة: 161، 162].

فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (35).

فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ.

أي: فلا تَضعُفوا -أيُّها المؤمِنونَ- عن قِتالِ الكافِرينَ، وتَبدَؤوا بدَعوتِهم إلى الصُّلحِ والمُسالَمةِ، والحالُ أنَّكم العالُون عليهم، القاهِرونَ الغالِبونَ لهم.[135]

---

(135) اختلف السلف في قوله: ﴿وأنتم الأعلون﴾ على أقوال: الأول: وأنتم الغالبون لهم العالون عليهم.

الثاني: وأنتم أولى بالله منهم.

وقد ذكر ابنُ جرير (٢١/ ٢٢٧) القولين، ورجّح الأول مستندًا لأقوال السلف، فقال: «وقوله: ﴿وأنتم الأعلون﴾ وأنتم القاهرون لهم، والعالون عليهم».

ثم ذكر (٢١/ ٢٢٨) قولًا ثالثًا لم ينسبه لأحد من السلف، فقال: «وقد قيل: عنى بقوله: ﴿وأنتم الأعلون﴾ وأنتم الغالبون آخر الأمر، وإنْ غلبوكم في بعض الأوقات، وقهروكم في بعض الحروب».

ولم يعلق عليه.

كما قال تعالى: وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ *إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ [آل عمران: 139، 140].

وقال سُبحانَه: وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ [النساء: 104].

وَاللَّهُ مَعَكُمْ.

أي: واللهُ معكم، فيَحفظُكم ويُعينُكم، ويَنصُرُكم على الكافِرينَ.

كما قال سُبحانَه: وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ [العنكبوت: 69].

وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ.

أي: ولن يَنقُصَكم اللهُ شيئًا مِن ثوابِ أعمالِكم، أو يُحبِطَها ويُبطِلَها.

كما قال تعالى: وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ [البقرة: 143].

وقال سُبحانَه: وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ [الأنبياء: 47].

وقال عزَّ وجلَّ: وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ [محمد: 4].

سورةُ مُحمَّدٍ

الآيات (36-38)

إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (36)
إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (37) هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي
سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ
تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (38)

غريب الكلمات:

فَيُحْفِكُمْ: أي: يُجهِدْكم بمَسألةِ أموالِكم، والإحفاءُ في السُّؤالِ: الإلحاحُ في المُطالَبةِ، وهو مِثلُ الإلحافِ سَواءً؛ فإنَّ الإحفاءَ والإلحافَ: المُبالَغةُ وبُلوغُ الغايةِ في كُلِّ شَيءٍ، وأصلُه يدُلُّ على الاستِقصاءِ.

تَتَوَلَّوْا: أي: تُعرِضوا؛ فالفِعلُ (ولَّى) إذا عُدِّي بـ (عن) لَفظًا أو تقديرًا -كما هنا- اقتَضى معنى الإعراضِ والتَّركِ، وإذا عُدِّي بنَفْسِه اقتَضَى مَعنى الوِلايةِ والقُرْبِ.

تفسير الآيات:

إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (36).

إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ.

أي: إنَّما حَقيقةُ الحياةِ الدُّنيا أنَّها لَعِبٌ لا فائدةَ منه، ولَهْوٌ يَتلهَّى النَّاسُ به؛ فلا تَضعُفوا عن الجِهادِ بسَبَبِها.

كما قال تعالى: وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآَخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ [الأنعام: 32].

وقال سُبحانَه: اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآَخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ [الحديد: 20].

وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ.

أي: وإنْ تُؤمِنوا وتَتَّقوا اللهَ بامتِثالِ أوامِرِه واجتنابِ نَواهيه، ومِن ذلك القيامُ بجِهادِ أعدائِه؛ يُعْطِكم ثوابَ إيمانِكم وتَقواكم بما هو خيرٌ لكم مِن لَعِبِ الدُّنيا ولَهْوِها.

كما قال تعالى: وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ [آل عمران: 179].

وقال سُبحانَه: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ [الحديد: 28].

وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ.

أي: وإنْ تُؤمِنوا وتَتَّقوا فإنَّ اللهَ لا يَسْألُكم أموالَكم.

إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (37).

أي: إنْ يَسألْكم اللهُ أموالَكم، ويُجهِدْكم بمسألتِها، ويُلِحَّ عليكم؛ تَمتَنِعوا مِن إخراجِها بُخلًا بها، ويُظهِرِ اللهُ[136] حينَئذٍ ما في بواطِنِكم مِن أحقادٍ.

هَاأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (38).

---

(136) ذكر ابنُ عطية (٧/ ٦٦٢) أن الفاعل في قوله: ﴿ويخرج﴾ يحتمل ثلاثة احتمالات: الأول: أن يكون الله –تبارك وتعالى.
الثاني: أن يكون البخل الذي يتضمنه اللفظ.
الثالث: أن يكون السؤال الذي يتضمنه اللفظ أيضًا.

هَاأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ.

أي: إنَّكم تُدْعَونَ لِتُنفِقوا أموالَكم في جِهادِ أعداءِ اللهِ، ونُصرةِ دينِه؛ فمِنكم مَن يَبخَلُ بمالِه فلا يُنفِقُه في سَبيلِ اللهِ، كما أمَرَه اللهُ تعالى.

كما قال تعالى: وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ [البقرة: 195].

وقال سُبحانَه: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ [البقرة: 254].

وقال عزَّ وجلَّ: آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ [الحديد: 7].

وقال تبارك وتعالى: وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ [الحديد: 10].

وقال جلَّ شأنُه: وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ [المنافقون: 10].

وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ.

أي: ومَن يَبخَلْ بمالِه فلا يُنفِقْه في سَبيلِ اللهِ، فإنَّما يَحرِمُ نَفْسَه مِنَ الثَّوابِ والخَيرِ الجَزيلِ.(137)

كما قال تعالى: وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ [التغابن: 16].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى [الليل: 5 – 7].

وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ.

أي: واللهُ الغنيُّ عن كُلِّ ما سِواه، وأنتم الفُقَراءُ إليه دائِمًا في جميعِ أحوالِكم؛ فلا حاجةَ له إلى أموالِكم، وإنَّما أمَرَكم بالنَّفَقةِ في سَبيلِه؛ لِيَعودَ نَفعُ ذلك إليكم.

وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ.

أي: وإنْ تُعرِضوا –أيُّها النَّاسُ– عمَّا أمَرَكم اللهُ تعالى به، يَجِئْ بقَومٍ غَيرِكم.

---

(137) ذكر ابنُ عطية (٧/ ٦٦٢) في قوله: ﴿عن نفسه﴾ احتمالين، فقال: «وقوله: ﴿عن نفسه﴾ يحتمل معنيين: أحدهما: فإنما يبخل عن شُحّ نفسه.

والآخر أن يكون بمنزلة: على؛ لأنك تقول: بخلت عليك وبخلت عنك، بمعنى: أمسكت عنك».

كما قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ [المائدة: 54].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ * إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [التوبة: 38، 39].

ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ.

أي: ثمَّ لا يَكُنِ الَّذينَ نأتي بهم أمثالَكم في الإعراضِ عن دينِ اللهِ، والبُخلِ بالأموالِ، بل يَكونونَ أطوَعَ للهِ منكم.

تمَّ بحمدِ الله تعالى المجلَّدُ الثَّالثُ والثَّلاثونَ

ويَليه المجلَّدُ الرَّابعُ والثَّلاثونَ، وأوَّله: تفسير سُورة الفَتْحِ

الفهرس

"هَذِهِ مُسْوَدَّةُ نُسْخَةٍ إِلِكْتِرُونِيَّةٍ، جَمِيعُ حُقُوقِهَا مَحْفُوظَةٌ لِلْمُؤَلِّفِ.
لَا يُسْمَحُ بِنَشْرِهَا أَوْ تَدَاوُلِهَا إِلَّا بِإِذْنٍ كِتَابِيٍّ صَرِيحٍ مِنَ الْمُؤَلِّفِ."

نسخة إلكترونية

المغني في التَّفْسِيرِ

المُحَرِّرُ الجَامِعُ لِتَفَاسِيرِ السَّلَفِ

[تَهْذِيبُ التَّفْسِيرِ المُحَرَّرِ لِلدُّرَرِ السَّنِيَّةِ]

[مُطَرَّزًا بِحَاشِيَةٍ مِنْ تَحْرِيرَاتٍ وَتَرْجِيحَاتٍ وَتَعْلِيقَاتِ عُيُونِ تَفَاسِيرِ المُحَقِّقِينَ فِي التَّفْسِيرِ:

{ابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ عَطِيَّةَ، وَابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ، وَابْنِ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى}

كَتَبَهُ وَاعْتَنَى بِهِ

د/ هَانِي بْن عَبْده

د/ آلَاء رِضَا